

تلخيص الحضارة الإسلامية

موجز الأسلوب الذي اتبعه الحكام

ج ١

اختيار

آية الله العظمى
الإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي

(قدس سره الشريف)

الطبعة الأولى

١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م

مؤسسة المجتبي للتحقيق والنشر

بيروت - لبنان ص.ب: ٦٠٨٠ شوران

بسم الله الرحمن الرحيم

فسيروا
في الأرض
فانظروا كيف كان
عاقبة المكذبين

صدق الله العلي العظيم

سورة آل عمران: ١٣٧

وسورة النحل: ٣٦

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

التاريخ هو بحر خضم عميق وواسع.. لا يعلم بدايته ونهايته إلا مبدئه ومنهيه وهو الله رب العالمين الذي منه البداية، واليه النهاية لا محالة، مهما طال الزمن ﴿ان إلى ربك الرجعى﴾^١.

والتاريخ هو: لفظ يدل على العلم وعلى مادة العلم في آن معاً.. فلفظه (التاريخ) تعني حوادث الماضي كما تعني أيضاً العلم بهذه الحوادث..
إلا أن الأديان التوحيدية شكلت منعطفاً أساسياً في فهم التاريخ وتعريفه بشكل دقيق وصحيح..

لقد خلق دين الحنيف ثورة في تعريف التاريخ.. لأنه ربط ربطاً لا انفصام له بين الله والتاريخ.

فجاءت هذه الأديان لتنفى عن التاريخ صبغة المفاجأة والحظ والغموض والتبعثر، والتي كثيراً ما نجدها عند متورطي اليونان والرومان مثلاً...

وتبعاً لهذا التعريف الديني فإننا نجد ان الماضي في حقيقته سجل لما خلقه الله وما سوف يخلقه إلى يوم الدين.. قال تعالى: ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾^٢... قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة..^٣

كما ان الماضي هو درس وعبرة للحاضر والمستقبل، قال عزوجل: ﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الكافرين﴾^٣.

ودراسة التاريخ الإسلامي هو ضرورة حضارية، وذلك لتكتشف أسباب عز المسلمين

١ - سورة العلق: ٨.

٢ - سورة الجاثية: ٢٤ و ٢٦.

٣ - سورة آل عمران: ١٣٧ وسورة النحل: ٣٦.

سابقاً وتأخرهم اليوم، فان دراسة التاريخ ضرورة من أجل البناء الحضاري.

كما ان النظرة السليمة للتاريخ تعطينا الحكم الحقيقي والصحيح للتشريع الإسلامي الذي أنزل ودون قبل ما يزيد عن (١٤) قرن من الزمن وهو جار مع الأيام والليالي إلى ان يرث الله الأرض ومن عليها كما ان التاريخ هو نبع الحضارات، وينبوع المعلومات وذلك بسبب تراكم الخبرات الإنسانية بعضها فوق بعض.

وبعضهم شبه الحضارة الإنسانية ببناء كبير، فكل دولة تأتي وتعمّر الذي تستطيعه أو تهدم كذلك، ولكل إنسان مكانه ودوره فيها ويستمر ذلك إلى ان يموت ويأتي غيره ليكمل طريقه، وهكذا إلا ان كمال الحضارة الإنسانية وتماها يأتي دورها بعد، ونحن ننتظرها بفارغ الصبر، لأنها هي التي تنفي الشرور والظلم والفساد عن وجه الأرض وتبني الخير والعدل والصلاح في هذا الكون الفسيح.

وذلك بقيادة واعية تتمثل بالإمام الحجة بن الحسن (صلوات الله عليه وآله) ورجال مؤمنون ومخلصون كل الإيمان والإخلاص فيرثون الأرض ويعيش الناس عيش الجنة في هذه الأرض الفسيحة.

هذا والبشرية قد جربت كل أنواع القوانين والأحكام والديساتير إلا انها جميعها أثبتت فشلها، والدستور الإسلامي والشريعة الإسلامية تراها واضحة للعيان انها أهل للتطبيق في كل زمان ومكان، وهي جديرة بالتطبيق لأنها قادرة على البناء الصالح للإنسان والإنسانية.

فدراسة التاريخ والاعتبار به هو مما أكد عليه الدين الإسلامي، ويعتبر من الأسس النظرية للفكر الاجتماعي والسياسي والاقتصادي على مدى التاريخ كله، وإذا أردنا الاستفادة من التاريخ علينا ان ننظر إليه وكأنه شيء ينبض بالحياة والحركة.

وأمر المؤمنين الإمام علي عليه السلام يوصينا جميعاً بوصية رائعة يتوجه بها إلى الإمام الحسن عليه السلام يقول فيها:

«أي بني.. إني وان لم أكن عمّرت عمر من كان قبلي، فقد نظرت في أعمالهم، وفكرت في أخبارهم، سرت في آثارهم، حتى عدت كأحدهم . بل كأني . بما انتهى إليّ من أمورهم عمّرت مع أولهم إلى آخرهم، فعرفت صفو ذلك من كدره ونفعه من ضرره، فاستخلصت لك من كل أمر نخيله (أو جليله)، وتوخيت لك جميله، وصرفت عنك مجهوله».

إذن كم هي دراسة التاريخ ضرورية للإنطلاق من أجل بناء الحاضر واستشراف المستقبل المنشود والموعود، والأمير عليه السلام يوصي ولده البار الإمام الحسن المجتبي عليه السلام بذات الوصية قائلاً: «وأعرض عليه (القلب) أخبار الماضين، وذكره بما أصاب من كان قبلك من الأولين، وسر في ديارهم وآثارهم، فانظر فيما فعلوا، وعما انتقلوا، وأين حلوا نزلوا؟..». (نهج البلاغة: الكتاب ٣١ الفقر ١٢).

ولكن كتب التاريخ بطبيعتها مطولة وواسعة قد لا يستوعبها الكثيرون، ومن هنا فاقصرها في هذا العصر . عصر السرعة كما يوصف . أصبح مطلوباً أكثر من ذي قبل وهذه مهمة تقع على عاتق العلماء الأفاضل الذين يميزون الصالح من الطالح، فيعطونا الصالح ويدعوا الفاسد لصاحبه حتى يموت في مطاوي الورق وبين الصفحات. وهذا الملخص لسماحة المرجع الدين الأعلى الإمام الشيرازي . حفظه الله . اختاره لنا ليعطينا خلاصة الكتاب فقط.

فكم نقول: ان في اللبن فوائد عظيمة وكثيرة جداً، أما إذا ما أردنا ان نستخلص خلاصة اللبن فعلياً خفقه بشدة وأخذ الزبدة منه فقط. ففائدة التلخيص هي كفاءة الزبدة تماماً.

وأبرز سماحة الإمام . حفظه الله . في هذا التلخيص على خصائص الأمة الإسلامية ومظاهر قوتها من حيث كانت الحريات، والأخوة، والأمة الواحدة، وهذا يعني إلقاء الحدود الجغرافية والقيود المصطنعة، وإنتقاء الجمارك وكل ما يعرقل الحركة والتجارة والبناء ضمن حدود الدولة الكبيرة كلها والتي تشمل عشرات الدول من دول اليوم.

كما انه . حفظه الله . أوضح الأسلوب الذي اتبعه الحكام والأمراء . الخلفاء . في إدارة البلاد الإسلامية كلها منذ الأيام الأولى وحتى الانهيار المفجع للدولة الإسلامية، مع إبراز الإيجابيات التي كان يتمتع بها التشريع الاسلامي، والسلبيات التي ظهرت من الحكام على مدى التاريخ الإسلامي كله وكانت من أسباب سقوطهم.

فالكتاب جميل وجليل وذو فائدة عظيمة، وعلى الجميع دراسته دراسة متأنية وواعية، وقد قمنا بطباعة الكتاب ونشره تعميماً للفائدة. راجين من الله سبحانه السداد والرشاد. والحمد لله رب العالمين.

مؤسسة المجتبي للتحقيق والنشر

لبنان . بيروت

١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله الطاهرين، ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين.
وبعد فهذا تلخيص (الحضارة الإسلامية) لبيان بعض ما كان في بلاد الإسلام في الغابر، لعله يكون الصالح منه مقرباً للأمة إلى سابق حالها، فترجع إلى ذلك العز، مع حذف الدخيل وترك غير الصالح فان التاريخ عبرة..
نسأل الله سبحانه ان يعيد إلى المسلمين دولتهم الواحدة العاملة بالإسلام في كل شؤونه، وهو المستعان .

قم المقدسة

محمد الشيرازي

فصل

القرن الرابع الهجري

في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) عادت المملكة الإسلامية إلى ما كانت عليه قبل الفتح الإسلامي، ونشأت فيها دول صغيرة منفصل بعضها عن بعض، كما كان الحال دائماً في تاريخ الشرق، إذا استثنينا فترات قصيرة، وقد تم هذا الانقسام حوالي سنة ٣٢٤ هـ. وتغلب كل رئيس على ناحيته، وانفرد بها، فصارت فارس والري وأصبهان والجيل في أيدي بني بويه، وكرمان في يد محمد بن إلياس، والموصل وديار ربيعة وديار بكر وديار مضر في أيدي بني حمدان، وأصبحت مصر والشام في يد محمد بن طغج الإخشيد، والمغرب وإفريقية في يد الفاطميين، والأندلس في يد عبد الرحمن الناصر الأموي، وخراسان في يد نصر بن أحمد الساماني، والأهواز و واسط والبصرة في يد البريديين، واليمامة والبحرين في يد أبي طاهر القرمطي، وطبرستان وجرجان في يد الديلم، ولم يبق في يد الخليفة إلا بغداد وأعمالها. على أن شبحاً لسيادة الخليفة ببغداد ظل وهما ماثلاً في الأذهان. على أن أصحاب الأطراف أو ملوك الطوائف كانوا يعترفون بالسيادة العليا للدولة، ويقدمون للخليفة الدعاء في المساجد، ويشترون منه ألقابهم، ويرسلون إليه الهدايا في كل عام. ولما علم عبد الرحمن بالأندلس أن العلويين بإفريقية تلقبوا بأمر المؤمنين أتخذ لنفسه أيضاً لقب الخلافة، وتسمى بأمر المؤمنين في سنة ٣٥٠ هـ..

المملكة الواحدة الإسلامية

ولكن لم يكن من شأن هذا الانقسام وتعدد أمراء المؤمنين أن يؤدي إلى ضيق في معنى الإسلام أو في الوطن الإسلامي، بل صارت كل هذه الأقاليم تؤلف مملكة واحدة، سميت مملكة الإسلام تمييزاً لها عن مملكة الكفر.

لا حدود جغرافية

وقامت وحدة إسلامية لا تتقيد بالحدود السياسية الجديدة.
وكان المسلم يستطيع أن يرتحل في داخل حدود هذه المملكة في ظل دينه وتحت رايته،
وفيها يجد الناس يعبدون الإله الواحد الذي يعبده، ويصلون كما يصلي، وكذلك يجد شريعة
واحدة وعرفاً واحداً، وعادات واحدة.

الحرية الإسلامية

وكان يوجد في هذه المملكة الإسلامية قانون عملي يضمن للمسلم حق المواطن، بحيث
يكون آمناً على حرمة الشخصية أن يمسها أحد، وبحيث لا يستطيع أحد أن يستره على أي
صورة من الصور.

الحرمان الشريفان

وكان النزاع على أشد ما يكون فيما يتعلق بمكة والمدينة من بين الأراضي المقدسة، لأن
امتلاكهما أصبح له شأن أكبر من ذي قبل، فلم تكن توجد من قبل مناسبة للبحث في
علامة الخليفة الحقيقي، أما الآن فقد ظهرت من ثانياً النزاع حول هذا المنصب نظرية
جديدة، هي أن أمير المؤمنين الحقيقي هو من كان ملكاً للحرمين، وهذه هي النظرية التي
يستند إليها اليوم في إثبات حق العثمانيين في الخلافة^٤.

وكان العلويون في هذا النزاع على الأراضي المقدسة هم الخصم الثالث الذي يأتي آخراً
فيفوز بالغنيمة، وكان الحسينيون منهم يتمتعون دائماً حول المدينة بمال وجاه عظيم، ولذلك
استطاعوا أن يفتحوا مكة حوالي منتصف القرن الرابع الهجري، دون أن يعترض عليهم
الطرفان الآخران، وهما العباسيون والفاطميون.

زحف الروم

وفي هذا العصر نجد مملكة الإسلام تعود من الناحية الجغرافية إلى حدودها الأولى، وتفقد
ممتلكاتها في الغرب، وكان البحر الأبيض المتوسط بعد عصر (شارلمان) قد أصبح بحراً عربياً،
واستطاع العباسيون منذ أوائل القرن الرابع أن يحافظوا على حدودهم الغربية من اعتداء

^٤ - لا يخفى ان (أمير المؤمنين) هو اللقب الخاص للإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وخليفة رسول الله يلزم ان يعين من قبل الله عزوجل وينص من الرسول (صلى الله عليه وآله) نفسه وقد قال (عليه السلام): «الخلفاء بعدي اثني عشر» كما هو متواتر عند الفريقين، وقد صرح بأسماء هؤلاء الأبطال واحد بعد واحد، أما غير هؤلاء فحكماؤهم ليسوا بخلفاء.

البوزنطيين، وكانت أخبار الانتصارات تقرأ من أعلى المنابر ببغداد.

غير أن زحف الروم بدأ سنة (٣١٤ هـ = ٩٢٦م) باستيلائهم على مدينة ملطية، وفي عام (٣٣١ هـ = ٩٤٢م) وافت جيوش الروم إلى ديار بكر، وبلغوا قرب نصيبين، وطلبوا من أهل الرها أن يدفعوا إليهم المنديل الذي كان المسيح ﷺ مسح به وجهه، وصارت صورة وجهه فيه، وذلك في مقابل إطلاق عدد من أسرى المسلمين، وكوتب الخليفة المتقي في ذلك فاستحضر الوجوه من أهل مملكته لأخذ رأيهم، وقام جدال عظيم بينهم، فذكر البعض إن هذا المنديل منذ الدهر الطويل في كنيسة الرها، لم يلتمسه ملك من ملوك الروم، وإن في دفعه إليهم غضاضة على الإسلام، لأن المسلمين أحق بمنديل عيسى ﷺ، وفيه صورته.

فقال علي بن عيسى، وهو الوزير المسن إذ ذاك: إن خلاص المسلمين من الأسر وإخراجهم من دار الكفر، مع ما يقاسونه من الضنك والضرر أوجب وأحق، ووافقه جماعة ممن حضر على قوله، وسلّم المنديل إلى الروم، فحملوه إلى القسطنطينية، وخرج البطريرك وكبار رجال الدولة لإستقباله، ومشى أهل الدولة بأجمعهم بين يديه بالشمع الكثير، وحمل إلى الكنيسة العظمى أجنيا صوفيا، ومنها إلى البلاط.

وفي عام (٣٦٤ هـ = ٩٧٤م) فتحت بعلبك وبيروت، وأخذت من بيروت صورة المسيح التي تنسب إليها الخوارق، ونقلت إلى الكنيسة التي أسسها زيمسكيس في قصر البرنز بالقسطنطينية.

أما أهل دمشق فقد اضطروا إلى أن يفتدوا أنفسهم بدفع ستين ألف دينار، يحملونها للروم في كل عام.

التقدم المستمر في الشرق

على أنه إذا كان سلطان الإسلام ينحسر عن بلاد في الغرب، فقد كان يقابل ذلك تقدمه المستمر في الشرق. ففي عام (٣١٣ هـ = ٩٢٥م) فتحت بلوخستان، وكانت حتى ذلك الحين على الوثنية.

وفي سنة (٣٤٩ هـ = ٩٦٠م) أسلم من الأتراك نحو من مائتي ألف خركاة، وعلى حين أنه في أواخر القرن الثالث الهجري كانت (أسبيجاب) آخر مدينة للمسلمين مما يلي الترك، فإن دخول بغراخان في سلك أمراء المسلمين جعل حدود المملكة الإسلامية تمتد إلى حوض

نهر التاريم. ويعتبر المقدسي أن مملكة الإسلام تنتهي حدودها إلى كاشغر.
وفي عام (٣٩٧ هـ = ١٠٠٦ م) كان أهل بلاد ختن مسلمين، وفي ذلك الوقت شمر
السلطان محمود بن سبكتكين، صاحب غزنة، وأخضع بلاداً واسعة من بلاد الهند لسلطان
الإسلام، وكانت علامة الثقة عند ملوك الهند أنهم يقطعون أصابعهم، وكان عند السلطان
محمود من أصابع من هادنه الكثير.

من تاريخ بغداد

أما بغداد فهي التي قد تنكرت لها الأيام، وذلك منذ عام (٣١٥ هـ = ٩٢٧ م) حين
أرهبها العيارون، وعاثوا فيها فساداً، وأعملوا فيها النهب لأول مرة، ثم صار أمرهم يتفاقم
كلما ضعفت الحكومة وكانت أسوأ أيامها للسنوات التي أفلت فيها الزمام من يد الحكومة
فيما بين مقتل بجمك ودخول بني بويه، أي ما بين عامي (٣٢٩ . ٣٣٤ هـ = ٩٤٠-٩٤٥ م)،
وكأنما كان سقوط رأس القبة الخضراء التي في قصر المنصور بمدينة السلام عام (٣٢٩ هـ
= ٩٤٠ م) إرهاباً بأفول نجم بني العباس، وكانت تلك القبة تاج بغداد وعلم البلد وكان ليلة
سقوطها مطر عظيم ورعد وبرق شديد.

وفي سنة (٣٣١ هـ = ٩٤٢ م) استطاع ابن حمدي، وهو لص ظهر ببغداد على رأس
جماعة من أصحابه، أن ينهب أموال أهل بغداد، وكان قد أعى السلطان أمره، وخلع عليه
ابن شيرزاد، ووافقته على أن يصحح في كل شهر خمسة عشر ألف دينار مما يسرقه هو
وأصحابه، فكان يستوفيها ويأخذ البراءات وروزات الجهد بما يؤديه أولاً فأولاً.

وكان ابن شيرزاد في ذلك الوقت كاتباً للقائد التركي المسمى توزون، فكان أمر الحكومة
في يديه، ومضى على الناس في أيام ابن حمدي وقت تحارسوا فيه بالبوقات في الليل، وامتنع
عليهم النوم خوفاً من كبسات هذا اللص وأصحابه. وخلت المنازل ببغداد من أهلها، وصاروا
يطلبون من يسكن الدار بأجرة يعطاها ليحفظها، وأغلقت عدة حمامات، وتعطلت أسواق
ومساجد. وأضيف إلى هذا ما كان بين السنيين والشيعة من نزاع دائم، فكانوا يلقون النار
بعضهم على بعض دائماً.

فتنة الكرخ

وفي سنة (٣٦١ هـ = ٩٧١ م) قامت بالكرخ فتنة، فأرسل الوزير حاجبه لقتال العامة، وكان شديد العصبية للسنة، فاضطر إلى إلقاء النار في أماكن كثيرة ليقضي على الفتنة، فاحترق الكرخ حريقاً عظيماً، وكان عدة من احترق فيه سبعة عشر ألف إنسان، وثلاثمائة دكان، وثلاثة وثلاثين مسجداً، ومن الأموال ما لا يحصى.

المقتدر العباسي

وبدأ الناس ينتقلون من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي، ولا يزال هذا الجانب إلى اليوم أعمر وأكثر سكاناً.

لما ثقلت العلة على الخليفة المكتفي في عام (٢٩٥ هـ = ٩٠٧ م) مالت نفس الوزير إلى تقليد المقتدر، وكان صبيّاً في الثالثة عشرة. ولقد ذُبح أحد القضاة، لأنه أطاع ضميره حين قالوا له: تباع للمقتدر، فقال: هو صبي، ولا تجوز المبايعه له.

ولكن الجماعة المتآمرين أخطئوا التقدير، فإن أم المقتدر، وهي أم ولد رومية قبضت على زمام الأمر هي وأولياؤها بيد القوة والحزم، فكانت تولى وتعزل، وحالت بين القوم وبين إنتهاب ما في بيت المال.

وقد لبث المقتدر على عرش الخلافة زهاء خمسة وعشرين عاماً، تحت جناحي أمه، وقد خلع في أثناء هذه المدة مرتين، فكان يثور عليه بعض قواده ويزيلونه عن سرير ملكه يوماً أو يومين، ثم يعود إليه، ولم يخرج في جيش ليقاتل إلا مرة واحدة، وقد قتل فيها، وذلك أن قواده طلبوا منه أن يخرج معهم لمحاربة مؤنس، فأبى، وما زالوا به حتى خرج مكرهاً، وقد جهدت به أمه ألا يخرج، وكشفت عن ثدييها، وبكت، ولكن غلب القضاء، فخرج وعليه البردة النبوية التي يتوارثها الخلفاء، ووافى أصحاب مؤنس، فضربه رجل منهم من خلفه ضربة سقط منها إلى الأرض، فأضجعه وذبحه بالسيف، وسلبت ثيابه والبردة فيها حتى سراويله، وترك مكشوف العورة إلى أن مر به رجل من الأكرة، فستر عورته بحشيش.

القاهر العباسي

ثم انتخب أخوه القاهر خليفة بعده، وكان القوم قد اتعظوا بحكم المقتدر فعينوا القاهر،

وقالوا: هو كهمل، ولا أم له، فنرجو أن تستقيم أمورنا معه.

وكان القاهر أهوج، شديد الإقدام على سفك الدماء، محباً للمال، قبيح السياسة، قليل الرغبة في اصطناع الرجال، غير مفكر في عواقب الأمور، وكان مولعاً بالشراب، لا يكاد يصحو من السكر، وكان يسمع الغناء.

ولما طلب منه أن يشهد على نفسه بالخلع أبي أن يحل الطالبين من بيعته، فخلع وسملت عيناه، ولم يسمل قبله أحد من الخلفاء وملوك الإسلام.

وسمل الأعين هذا عادة أخذوها المسلمون عن البوزنطيين، ثم عاش القاهر بعد خلعه سبعة عشر عاماً في دار الخلافة، حتى نقله المستكفي منها، وكان قد بلغ به الضر والفقر إلى أن كان ملتفماً بقطن جبة، وفي رجله قبقاب خشب.

وقد خرج في يوم جمعة إلى جامع المنصور وغطى وجهه، ووقف فعزّف الناس نفسه وسألهم أن يتصدقوا عليه، فقام إليه أحد الهاشميين فأعطاه ألف درهم وردّه إلى داره.

الراضي العباسي

ولما عيّن الراضي (٣٢٢ . ٣٢٩ هـ . ٩٣٣ . ٩٤٠ م) ابن أخي القاهر خليفة، كان له من العمر خمسة وعشرون سنة، وكان مولعاً بجمع البلور، حتى يقول الصولي: ما رأيت البلور عند ملك أكثر منه عند الراضي، ولا عمل ملك منه ما عمل، ولا بذل في أثمانه ما بذل، حتى اجتمع له من آله ما لم يجتمع لملك قط، وقد أولع بهدم القصور في دار الخلافة وبناء غيرها أو تصييرها بساتين.

ولم يجد أصحاب الراضي فيه من العيب إلا أنه كان يؤثر لذته وشهوته على رأيه، وأنه كان رغم مرضه لا يحتمي، وكان إذا وصف له أطبأوه شيئاً لا يستعمله، وإذا أكل الشيء الضار لم يعلمهم، ومات وهو في الثانية والثلاثين من العمر، وعهده لم يسلم من سفك الدماء، فقد احتال على الوزير ابن مقله بعد تركه الوزارة، حتى قبض عليه وسجنه، وقبض على جماعة من أهله وأقاربه ممن سعى في تقليد الأمر لنفسه وبايعه الناس عليه، فمنهم من قتله، ومنهم من ضربه وسجنه، فمات في سجنه ومنهم من استتر طول مدته.

المتقي العباسي

ثم ارتقى عرش الخلافة بعده أخوه المتقي، وهو في السادسة والعشرين من العمر، وظل البؤس حليفاً له بعد ارتقائه العرش، فهو أول خليفة ترك مدينة السلام خوفاً وطلباً للنجاة، ولحق بالحمدانيين، وظل ينتقل معهم في الجزيرة، وهم يهزمون مرة بعد أخرى. وقد اطمأن إلى موثيق القائد التركي توزون، وأمن جانبه بعد أن استوثق منه مرة بعد أخرى، ولكن توزون غدر به لأجل ستمائة ألف دينار أخذها من أحد طالبي عرش الخلافة، فقبض عليه وخلعه، وأمر بإحضار الجارية الشيرازية حُسن، فتولت سمله بيد غلامها السندي، وعاش المتقي بعد خلعه أربعاً وعشرين سنة، ومات بداره.

المستكفي العباسي

ثم خلفه المستكفي بعد أن تأمر عليه مع توزون، وسفرت بينهما حُسن الجارية الشيرازية، فارتقى المستكفي عرش الخلافة بعار هذه المؤامرة، وكانت أمه أم رومية تسمى غصن، وهو بين امرأة جشعة رفعتة بدسائسها إلى منصب الخلافة، وبين الترك الذين أصبحوا سادة بغداد.

وأخيراً جاء بنو بويه، ولما جاءوا إليه ليخلعوه رضي أن يخلع نفسه، ولكنه شرط عليهم أن لا يقطعوا شيئاً من أعضائه، غير أن المطيع أخا المتقي هو الذي خلف المستكفي، فأمر أن يسمل انتقاماً لأخيه، وطلب من يسمله، فلم يقدم على ذلك أحد إلا خادم صقلي كان المستكفي قد استخدمه، ثم وجد عليه في بعض أوقاته فضربه مائتي سوط وحبسه، فكان هذا الخادم حنقا عليه، فقال للمطيع: أنا أكحله، وقام بهذه المهمة.

أما الخلفاء المتأخرون فلم يكن لهم عمل بالفعل في إدارة الدولة، فطال لذلك حكمهم، فأما المطيع فإنه خلع نفسه غير مستكره، وترك ولاية الخلافة لابنه الطائع، وذلك أن المطيع كان قد ناله فالج قديماً، وكان يستره، فظهر وتعدرت عليه الحركة، وثقل لسانه، فترك ولاية الخلافة لابنه: ثم خلع الطائع بعد ثمان عشرة سنة من حكمه، وقبض عليه، واعتقل عند الخليفة القادر مكرماً، حتى مات بعد اثنتي عشرة سنة.

الفاطميون

هذه صورة لبعض خلفاء بني العباس أيام إدبار دولتهم، وهي تخالف صورة خلفاء الفاطميين الذين أخذ نجمهم إذ ذاك في الارتفاع. ويضاف إلى هذا هدوء السياسة الحازمة وطمأنينتها في عهدهم وكان العزيز (٣٦٥-٣٨٦هـ = ٩٧٥-٩٩٦م) أعظم هؤلاء الخلفاء، ضرب أول مثل للفروسية العربية بما تنطوي عليه من العفو وكبر القلب، وهي التي أثرت فيما بعد تأثيراً كبيراً في الغرب، فقد حدث أن أحد القواد الأتراك خرج على طاعة جوهر عام ٣٦٥هـ ٩٧٥م وهزم جوهرراً، فالتجأ هذا إلى عسقلان، فأدركه التركي وحاصره مدة طويلة حتى طلب الصلح، فأجابته، وعلق التركي سيفاً مجرداً على باب حصن عسقلان، وخرج جوهر وأصحابه من تحت السيف، ثم دخلوا إلى مصر، فلم يرض العزيز بالصلح، وسار بنفسه لمحاربة التركي، فهزمه وأسرته، واستنقذه من بين يدي أسريه، بعد أن كاد يموت ضرباً ولكمماً، وأمنه على نفسه، ودفع إليه خاتمه، واستسقى التركي ماء، فأمر العزيز بإحضار قدح شراب جلاب، فلما أتى بالقدح توقف التركي على الشرب خوفاً من أن يكون في القدح سم قاتل، وتبين للعزيز ذلك، فأخذ القدح وشرب منه، ثم أعطاه ليشرّب، وأفرد له خيمة، وتقدم بأن يحمل إليه جميع ما يحتاج إليه، وحمله على دوابه، وأمره بالركوب على مركبه، وسأله عن أناس ممن يأنس بهم فالتمس إحضار قوم من أصحابه، فأتى إليه بهم من بين الأسارى، ولما رجع العزيز إلى مصر تقدم إلى وجوه دولته وقواده وأمرائه بإكرام التركي إجلاله.

الحكام بأمر الله العباسي

وأخيراً جاء الحاكم بأمر الله، وأظهر من العدل ما لم يسمع بمثله، ولعمري إن أهل مملكته لا يزالون في أيامه آمنين على أموالهم غير مطمئنين على نفوسهم، ولم تمتد يده قط إلى أخذ مال أحد، بل كان له جود عظيم وعطايا جزيلة^٥.

الأمراء

ولم يكن لأمراء المملكة الإسلامية علامة تميّزهم من الجهة الرسمية، فكان يدعى لهم في كل جهة مع الدعاء لحاكمها، وذلك بعد الدعاء للخليفة، أما في العراق فقط حيث كان الخليفة هو الذي يدير أمورها بنفسه من غير وال فكان لا يذكر أحد مع الخليفة في الخطبة، لأن ذلك كان يشعر بشيء من الانتقاص لمنصب الخليفة.

^٥ - هذا ما ذكره يحيى بن سعيد مع شدة تهريجه ضده، ولا يخفى ان ما ذكر في حال الحاكم لا دليل عليه لأن ما كتب إما من قبل أعدائه المسيحيين أو يحيى بن سعيد وهو مرتبط بالخلافة العباسية.

الفساد في بغداد

وقد بدأ عهد الفساد الحقيقي ببغداد عام (٣٣٠هـ = ٩٤١م)، وهو العام الذي فتح فيه البريدي بغداد وفر فيه الخليفة إلى الموصل، وذلك أن البريدي ظلم الناس ظلمه المعروف، وافتتح الخراج في آزار، وخبط أصحاب الأراضي خبط أهل الذمة، ووظف على كل كتر من الحنطة سبعين درهماً، وأخذ جزءاً من مال التجار غصباً، وفرّ آخر البريديين إلى القرامطة في جنوب جزيرة العرب.

البويهون

ثم جاء إلى الحكم البويهون، وكان من أكبر الصفات التي ظهرت فيها مقدرة بني بويه أنهم كانوا يستطيعون جمع المال من كل وجه، وأن يدخروه حتى يكون بين أيديهم المال دائماً، وقد ساعدهم الحظ في ذلك بأمور هي من عجيب الاتفاقات، فيحكى مثلاً إن علي بن بويه لما دخل شيراز اجتمع أصحابه وطالبوه بالمال، ولم يكن معه ما يرضيهم، فأشرف أمره على الانحلال، واشتغل قلبه واغتم غماً شديداً، فبينما هو مستلق على ظهره، وقد خلا للفكر والتدبير، إذ رأى حية قد خرجت من سقف المجلس الذي كان فيه من موضع ودخلت موضعاً آخر، وخاف أن تسقط عليه، وهو نائم، فأمرهم بفتحها، فوجدوا فيها عدة صنابير من المال وغيره، فأنفق ذلك في رجاله بعد أن أشفى أمره على الانحلال.

وكان السبب في ارتفاع علي بن بويه سماحته وشجاعته وسعة صدره وحسن سياسته.

والصفة الثانية الكبرى مما أتصف به بنو بويه:

التضافر الوثيق والطاعة التامة، وذلك في أجيالهم الأولى على الأقل، ويرجع الفضل في ذلك إلى الصفات العظيمة التي توفرت لعلي بن بويه الذي لقب فيما بعد بعماد الدولة، وهو الذي يرجع إليه الفضل فيما بلغه بيت بني بويه من قوة وعزة.

ومن أمثلة طاعتهم والتزامهم النظام أن معز الدولة، وهو أصغر الأخوة الثلاثة، وكان حاكماً على العراق إذ ذاك، لما لقي أخاه عماد الدولة بأرجان (عام ٣٦٣هـ) قبل الأرض بين يديه، وكان يقف قائماً عنده، فيأمره بالجلوس فلا يفعل، ولما مات الأخ الأكبر انتقلت

الرياسة إلى أخيه الثاني ركن الدولة في الري، فكان معز الدولة لا يخالف له أمراً، وكان ركن الدولة يأمره بإنفاذ الجيوش فيفعل، ولما أيقن معز الدولة بالتلف وصى ابنه، وهو على سرير الموت، بطاعة ركن الدولة، واستشارته في كل ما يعرض له من مهم، وكذلك ابن عمه عضد الدولة لأنه أسن منه وأقوم بالسياسة.

وقد غضب والد عضد الدولة على ابنه، وأمره أن يخرج من بغداد ويسلمها لأبناء عمه، فخرج منها طاعةً لأبيه، بعد أن كان قد أقام بها، واتخذ لنفسه بها داراً.

وأما ركن الدولة فقد كان حليماً، واسع الكرم، حسن السياسة لرعاياه وجنده، رؤوفاً بهم، بعيد المهمة، يتحرّج من الظلم، ويمنع أصحابه منه، وقد أثى المؤرخون على عدله وكرمه.

وكان عضد الدولة (المتوفى عام ٣٧٢هـ = ٩٨٢م)، دون سائر أعضاء أسرته، هو الذي يمثل السيد الحاكم تمثيلاً حقيقياً، وقد خضعت لسلطانه في آخر أمره، البلاد الممتدة من بحر الخزر إلى كرمان وعمان، فلا بدع أن يلقب بشاهنشاہ (ملك الملوك) لأول مرة في الإسلام، بعد أن كان هذا اللقب يشعر من قبل بالتجرؤ على مقام الألوهية، وقد ظل هذا اللقب لمن جاء بعده من ملوك بني بويه، فكان أيضاً إحياء لرسوم الشرق القديمة.

وقد طهر السبل من اللصوص، ومحا أثر العابثين الذين كانوا يقطعون الطريق، ويحكي أنه دس على اللصوص في إحدى القوافل بغلا يحمل حلوى شيتت بالسّم، فأكلوا منها فهلكوا، وكانت هذه مكيدة عجيبة.

وأعاد النظام إلى صحراء جزيرة العرب وإلى صحراء كرمان، وكانت أشهر بمخاوفها، حتى رفعت الجباية عن قوافل الحج، وزال ما كان يجري عليها من القبائح وضروب العسف، وأقام للحجاج السواقي في الطريق واحترف لهم الآبار، واستفاض الينابيع وأدار السور على مدينة الرسول ﷺ وأمر بعمارة بغداد وأسواقها، وكانت مختلة قد أحرق بعضها، وخرب البعض، وابتدأ بالمساجد الجامعة، وكانت في نهاية الخراب، وهدم ما كان مستهدماً من بنايتها، وأعاد بناءها، وألزم أرباب العقارات بالعمارة، فمن قصرت يده عن ذلك اقترض من بيت المال، وأمر من كانت له دار على الشط من الأولياء والحاشية أن يجتهد في عمارتها وتحسينها، وكان الناس قد استطابوا هدم المنازل وبيع أنقاضها، فأبطل هذه السنة وأعاد عمارة بستان عرصة دار العباس ابن الحسين وغيره، فامتألت الخرابات بالزهر والخضرة

والعمارة، بعد أن كانت مأوى الكلاب ومطارح الجيف والأقذار وجلبت إليها الغروس من فارس وسائر البلاد، وكانت الأنهار ببغداد قد دفنت بحاربيها وعفت رسومها، ونشأ جيل من الناس لا يعرفها، فأمر بحفر عمداتها ورواضعها، وقد كانت على الأنهار قناطر قد تهدمت وأهمل أمرها، فلم تكن تخلو من أن يجتاز عليها البهائم والنساء والأطفال والضعفاء فيسقطون، فبنيت كلها جديدة وثيقة، وعملت عملاً محكماً وكذلك جرى أمر الجسر ببغداد، فإنه كان لا يجتاز عليه إلا المخاطر بنفسه، لا سيما الراكب لشدة ضيقه وضعفه وتزاحم الناس عليه فاخترت له السفن الكبار المتقنة، وعرض حتى صار كالشوارع الفسيحة وحصن بالدرابزينات... وأعيد كثير من قناطر أفواه الأنهار، وحول من البادية قوماً فأسكنهم فارس وكرمان فزرعوا وعمروا البرية.

وكان ينقل إلى بلاده ما لا يوجد بها من الأصناف، فمما نقله إلى كرمان حب النيل، وبنى بشيراز داراً عظيمة تشتمل على ثلاثمائة وستين حجرة، ووسع الدار الكبيرة التي كانت للقائد سبكتكين ببغداد، والتي تركها بعد وفاته، وأجرى إلى بستانه الماء في مجرى عال يخترق الصحراء والأرياض، واستخدم الفيلة في نقض هذه الدور، ورمى حيطانها، وفي ذلك الأرض، وكان أول من استعمل الفيول في القتال، وكان عازماً على القيام بمشروعات بناء غير ما تقدم فمات قبل ذلك، وكانت عادته أن يياكر دخول الحمام، فإذا خرج وصلى الفجر دخل إليه خواصه، فإذا ترجل النهار سأل عن الأخبار الواردة، ثم يتغدى، والطبيب قائم، وهو يسأله عن منافع الأطعمة ومضارها، ثم ينام إلى الظهر، فإذا انتبه صلى الظهر وخرج إلى مجلس الندماء والراحة إلى أن يمضي من الليل صدر ثم يأوي إلى فراشه، وكان قد تعلم على أحسن المعلمين، وكان يفتخر بمعلميه، وكان يحب العلم والعلماء، ويجري الجرايات على الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين والنحاة والشعراء والنسابين والأطباء والحساب والمهندسين.

وكان يتشاغل بالعلم ويتفرغ للأدب في أيام دولته، وقد وجدله في تذكرة: إذا فرغنا من حل إقليدس كله تصدقت بعشرين ألف درهم، وإذا فرغنا من كتاب أبي علي النحوي تصدقت بخمسين ألف درهم، وكان يحب الشعر ويعطي الشعراء، ويؤثر مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء، وكان يقول الشعر وينشده، ويحكم على معانيه بعد التقدير له، وقد ذكر له الثعالبي شعراً عربياً ينسب إليه.

وقد أفرد عضد الدولة في داره لأهل الخصوص والحكماء والفلاسفة موضعاً يقترب من مجلسه، فكانوا يجتمعون فيه للمفاوضة آمنين من السفهاء ورعاع العامة، وأمر بإدراك الأرزاق على قوام المساجد والمؤذنين والأئمة والقراء فيها، وإقامة الجرايات لمن يأوي إليها من الغرباء والضعفاء، وبني مارستاناً^٦ كبيراً ببغداد.

وتجاوزت صدقاته أهل الملة إلى أهل الذمة، فأذن للوزير نصر بن هارون في عمارة البيع والديرة، وإطلاق الأموال لفقرء أهل الذمة.

ولم يُخرج بيت بني بويه بعد عضد الدولة جيلاً يصلح للحكم، واضمحت في أواخر الأمر مواردهم المالية، واحتلت المملكة أيام جلال الدولة، وقطعت عنه المادة حتى أخرج ثيابه وآلاته وباعها في الأسواق، وخلت داره من حاجب وفراش وبواب، وصار أكثر الأبواب مغلقاً، وانقطع ضرب الطبل له في أكثر الأيام لانقطاع الطبالين.

أمراء الترك

وأما أمراء الترك فيمثلهم بحكم والإخشيد، ولما جاء بحكم إلى بغداد حمل معه كثيراً من ضروب الغلظة التي اقتزنت بحياته الجندية، وعندما دخل واسط طالب أهلها بالمال واشتد في تعذيبهم حتى كان يضع على بطن الرجل منهم طستاً فيه جمر، فنبهه البعض إلى أنه يفعل ما كان يفعل مرداويج بأهل الجبل، وذكّره بأنه في بغداد ودار الخلافة لا الري وإصبهان، ولا تحتمل بغداد هذا الأخلاق، وقد أبغض أهل بغداد بحكم لقبح سيرته، فلما ظهر ابن رائق سروا به، وأظهروا ما في أنفسهم من بغض بحكم، فكان العيّارون والصبيان يهزءون ببحكم ورجاله ويقولون: بحكم حلقوا نصف سباله، فإذا رأوا تركياً عليه قلنسوة صاحوا به: قلنسوة طيري! ليس أميرنا بحكم.

وكان بحكم يدفن أمواله في الصحراء ويأخذ معه رجالاً ليعاونوه، فيطبق عليهم الصناديق، ويحملهم على بغال إلى جوف الصحراء، وبعد أن يدفن المال يطبق عليهم الصناديق ويعود بهم، فلا يدرون إلى أين ذهبوا من أرض الله ولا من أين جاءوا، وكان هو يتخذ لنفسه علامات يهتدي بها، وأصل هذا التصرف راجع إلى بساطة بحكم وتخبطه فيما يجهله من الأمور غير العسكرية.

^٦ - أي المستشفى.

وأما الإخشيد فكانت فيه خصلتان: السذاجة وحب التملك، فكان اجتماعهما طريفاً، وقد بدأ بمصادرة جميع العمال الأغنياء، أصدقاء كانوا أم أعداء، وأخذ أموالهم في هدوء من جانبه وبرود، وكثير منهم كان يستحق هذا، وقد اشتهرت عنه محبته للعنبر، فكان فإذا جاءت الأوقات التي يهدى إليه فيها أخرج من خزائنه العنبر وباعه إلى التجار، فيشتره الذين يهدونه إليه، فيحصل له الثمن الوافر، ثم يعود العنبر إليه، وتحكى عنه حكايات تدل على انه كان لا يأنف أن يأخذ ما يعجبه إذا وجده عند أحد من أصحابه.

وقد وقع له مرة أمر عجيب، وذلك أن رجلاً من أهل العراق صعد فوق زمزم بمكة وصاح: معاشر الناس! أنا رجل غريب، ورأيت البارحة رسول الله ﷺ وهو يقول لي: سر إلى مصر، والق محمد بن طعج، وقل له عني يطلق محمد بن علي الماداري، فقد أضر بولدي، ثم سارت القافلة إلى مصر، وسار الرجل ووصل إلى مصر وبلغ الإخشيد خبره، فأحضره، وقال إيش رأيت؟ فأخبره، فقال: كم أنفقت في مسيرك إلى مصر؟ قال: مائة دينار، فقال: هذه مائة دينار من عندي، وعد إلى مكة، ونم في الموضع الذي رأيت فيه رسول الله ﷺ فإذا رأيته فقل لرسول الله ﷺ: قد بلغت رسالتك إلى محمد بن طعج، فقال: بقي لي عنده كذا وكذا، وذكر شيئاً كثيراً، فإذا دفعه إلي أطلقته، فقال له الرجل: ليس في ذكر رسول الله ﷺ هزل، وأنا أخرج إلى المدينة، وأنفق من مالي وأسير إلى رسول الله ﷺ وأقف بين يديه يقضان بغير منام، وأقول: يا رسول الله أديت رسالتك إلى محمد بن طعج، فقال لي كذا وكذا، وقام الرجل، فأمسكه، وقال: حصلنا في الجدد، إنما ظننا بك ظناً، والآن فما تبرح حتى أطلقه، فأرسل إليه الإخشيد من توسط في أمره وأطلقه.

وادعى رجل كان اقطع انه رأى النبي جبرئيل وعلياً ﷺ، قال: فسألت النبي ﷺ، رد يدي، فردها إلي، وانتبهت، وقد عادت، وورد من دمياط كتاب بأن جماعة من المستورين رأوه مقطوع اليد، فأوصله الإخشيد إليه وأكبره، واستعظم قدرة الله تعالى فيه، ثم قيل إن هذا الرجل دلس وكذب، وزالت الفتنة.

اليهود والنصارى

إن أكبر فرق بين الإمبراطورية الإسلامية وبين أوروبا التي كانت كلها على المسيحية في العصور الوسطى وجود عدد هائل من أهل الديانات الأخرى بين المسلمين، وأولئك هم أهل الذمة الذين كان وجودهم من أول الأمر حائلاً بين شعوب الإسلام وبين تكوين وحدة سياسية، وقد ظلت كنائس اليهود والنصارى وأديرتهم أجزاء غريبة، واستند أهل الذمة إلى ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود وما منحوه من حقوق فلم يرضوا بالاندماج في المسلمين، وقد حرص اليهود والنصارى على أن تظل دار الإسلام دائماً غير تامة التكوين، حتى إن المسلمين ظلوا دائماً يشعرون أنهم أجنب منتصرون لا أهل وطن، وحتى إن الفكرة الإقطاعية لم تمت، وكانت الحاجة إلى المعيشة المشتركة وما ينبغي أن يكون فيها من وفاق مما أوجد من أول الأمر نوعاً من التسامح الذي لم يكن معروفاً في أوروبا في العصور الوسطى، ومظهر هذا التسامح نشوء علم مقارنة الأديان، أي دراسة الملل والنحل على اختلافها، والإقبال على هذا العلم بشغف عظيم.

وكان تغيير الدين لا يجوز إلا إذا كان دخولاً في الإسلام، فكانت الطوائف الدينية منفصلة بعضها عن بعض تمام الانفصال، وكان المسلم إذا ارتد عن الإسلام عوقب بالقتل^٧، كما أن قانون الدولة البوزنطية كان يقضي بقتل المسيحي إذا غير دينه.

ولم يكن ثم تزواج بين المسلمين وغير المسلمين، وذلك لأن القانون المسيحي لم يكن يجيز للمرأة النصرانية أن تتزوج بغير نصراني، لئلا تنتقل هي وأولادها إلى غير المذهب، ولا كان يجوز للنصراني، بحسب قانون الكنيسة أن يتزوج بغير نصرانية إلا رجاء إدخالها هي وأولادها في النصرانية.

أما زواج المسيحي من مسلمة فكان مستحيلاً، على أنه كان في الدولة الإسلامية ما يضمن لكل ديانة من ديانات أهل الذمة كيائها الخاص، فكان لا يجوز للمسيحي أن يتهود، ولا لليهودي أن ينتصر، ولا يكون تغيير الدين إلا إذا كان ذلك دخولاً في الإسلام، ولم يكن النصراني يرث اليهودي ولا العكس، كما لم يكن اليهودي أو النصراني يرث المسلم، ولا

^٧ - هذا بشروط قلما توجد كل تلك الشروط، فالعقوبة أقرب إلى التخويف من التطبيق، وعندنا ان توبة المرتد مقبولة حتى إذا كان فطرياً.

المسلم غير المسلم يهودياً كان أو نصرانياً^٨.

وفي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري صدر منشور كتب للصائبين عن الخليفة، أمر فيه . إلى جانب صيانتهم وحراستهم والذب عن حرمتهم ورفع الظلم عنهم ونحو ذلك . بالتخلية بينهم وبين موارثهم، وترك مداخلتهم ومشاركتهم فيها، لأن أمير المؤمنين يرى في موارث الصائبين وغيرهم من المخالفين رأي رسول الله ﷺ، إذ يقول في الأثر الثابت عنه: لا يتوارث أهل ملتين^٩.

وفي أثناء القرن الرابع الهجري اعترف للمجوس بأنهم أهل ذمة^{١٠}، إلى جانب اليهود والنصارى، وكان لهم، كاليهود والنصارى، رئيس يمثلهم في قصر الخلافة وعند الحكومة. وصار الجاثليق النسطوري، رئيس المسيحيين الشرقيين، بعد أن إنتقل مركز الدولة الإسلامية إلى الشرق، هو الرئيس الأكبر للنصرانية، وكانت تنتخبه الكنيسة ويصادق الخليفة على انتخابه، ويكتب له عهداً كما يكتب لكبار العمال والمتصرفين.

وقد كان انقسام الإسلام إلى خلافة بغداد وأخرى بالقاهرة مما أثار في تنظيم المجتمع اليهودي، ولذلك نجد ببغداد رأس الجالوت الذي لقبه بعض بسيدنا، ولكن كلمته كانت لا تسري إلا شرقي الفرات، ونجد في القاهرة رئيساً آخر يلقب سر هساريم (أي أمير الأمراء) وكان يعين أحبار اليهود في الشام ومصر، أي في حدود مملكة الفاطميين.

ويقدر ربي بنيامين (وهو رحالة سافر عام ١١٦٥م) اليهود الذين في المملكة الإسلامية . بعد صرف النظر عن المغرب . بنحو ثلاثمائة ألف يهودي، على حين أن ربي بتاحيا . وقد سافر بعد صاحبه بعشرين عاماً . يقدر أن عدد اليهود في العراق وحدها يبلغ ستمائة ألف، ولا تنطبق هذه الأرقام على الشام في القرن الرابع الهجري لأن السياسة التي جرى عليها قواد الصليبيين إزاء اليهود كادت تفني الطائفة الإسرائيلية، ويقدر بنيامين عدد سكان الحي الخاص باليهود في القدس بأربعة أنفس، ولم يجد بتاحيا هناك إلا شخصاً واحداً، ويقول بايلو مارسيلوس جورجيوس^{١١} (في خبر يرجع تاريخه إلى أكتوبر ١٢٤٣م) إنه لم يكن في الحي

^٨ - للمسألة تفاصيل فقهية ذكرنا بعضها في (الفقه) (م).

^٩ - هذا في الإسلام والكفر على تفصيل فقهي، لا مطلقاً.

^{١٠} - هذا مما قرره الرسول ﷺ كما في الأخبار.

^{١١} - (Bailo Marsilius Georgius).

الخاص بالبندقيين في صور إلا تسعة من شبان اليهود.

والمدينتان الوحيدتان فيما بين الفرات ودجلة اللتان يقول ابن حوقل إن أكثر أهلها نصارى هما الرها وتكريت، إنها مدينة قديمة البناء، وتجمع سائر فرق النصارى، وبها من البيع والأديرة القديمة التي تقارب عهد عيسى عليه السلام والحواريين، لم تتغير أبنيتها وثيقة وجلداً، أما المحوس فكانوا كثيرين بالعراق، وأكثر ما كانوا في جنوب فارس، وفي سنة (٣٦٩هـ = ٩٧٩م) وقعت فتنة عظيمة بينهم وبين عامة شيراز من المسلمين، ونهبت في هذه الفتنة دور المحوس، وضربوا، الصائبة عضد الدولة الخبر وجمع كل من له أثر في ذلك وبالغ في تأديبهم وزجرهم. أما الصائبة فكان آخر عهد ازدهر أمرهم فيه أواخر القرن الثاني، في عهد الخليفة الأمين، ففي ذلك العصر عاد شأن الوثنية بجران إلى الظهور، وقيدت الثيران في جميع الشوارع مزينة بغالي الثياب والورود والرياحين وبالأجراس على قرونها، وسار خلفها الرجال بالمزامير.

حريات أهل الذمة

ولم يكن في التشريع الإسلامي ما يغلق دون أهل الذمة أي باب من أبواب الأعمال، وكان قدمهم راسخاً في الصنائع التي تدر الأرباح الوفرة، فكانوا صيارفة وتجاراً وأصحاب ضياع وأطباء، بل إن أهل الذمة نظموا أنفسهم بحيث كان معظم الصيارفة والجهايزة في الشام مثلاً يهوداً، على حين كان أكثر الأطباء والكتبة نصارى، وكان رئيس النصارى ببغداد هو طبيب الخليفة، وكان رؤساء اليهود وجهايزتهم عنده، وكان أصغر دافعي الضرائب هم اليهود الخياطون والصباغون والأساكفة والخرازون ومن إليهم.

ولم تكن الحكومة الإسلامية تتدخل في الشعائر الدينية لأهل الذمة، بل كان يبلغ من بعض الخلفاء أن يحضر مواكبهم وأعيادهم ويأمر بصيانتهم، وفي حالة انقطاع المطر كانت الحكومة تأمر بعمل مواكب يسير فيها النصارى، وعلى رأسهم الأسقف، واليهود ومعهم النافخون في الأبواق.

وكذلك ازدهرت الأديرة في هدوء، فمن ذلك الدير المسمى دير قني، وهذا الدير كان يقع على مسافة ستة عشر فرسخاً من بغداد، منحدرًا في الجانب الشرقي، بينه وبين دجلة ميل ونصف، وهو دير حسن نزه عامر، وفيه مائة قلاية لرهبانة والمتبتلين فيه، لكل راهب قلاية، وهم يتعاونون هذه القلاية بينهم من ألف دينار إلى مأتي دينار إلى خمسين ديناراً،

وحول كل قلاية بستان فيه من جميع الثمار والنخل والزيتون، وتباع غلته من مأتي دينار إلى خمسين ديناراً، وعليه سور عظيم يحيط به، وفي وسطه، نهر جار، وعيده الذي تجتمع الناس إليه عيد الصليب.

دكتاتور الكنيسة

على أن الكنيسة الرسمية في الدولة الرومانية الشرقية قد ذهبت في معاداتها للمسيحيين الذين يخالفون رجالها في التفكير أبعد مما ذهب إليه الإسلام بالنسبة لأهل الذمة، فلما أعاد الإمبراطور نقفور افتتاح بلاد الشام في القرن الرابع الهجري . العاشر الميلادي . كان مما وعد به أهل الشام وأمنهم به أن يحميهم من مضايقة كنيسة الدولة، ولكنه رغم هذا الأمان، لم يأل جهداً في مضايقة اليعقوبيين، فاضطرهم مثلاً إلى الخروج من أنطاكية، ولذلك نجد مؤرخي اليعقوبيين يصفون البطارقة التي عينتهم الدولة في أنطاكية بأنهم أضل من فرعون وأشد كفراً بالله من بختنصر.

و لما أعيد فتح ملطية أخذ بطريرك اليعاقبة وسبعة من كبار أساقفتهم إلى القسطنطينية وسجنوا هناك، ووضع الملكانيون أيديهم على الكنيسة الكبرى بملطية، فأما البطريرك فإنه مات منفياً على حدود بلغاريا، وكذلك مات أحد أصحابه في السجن، ورجم الثالث أمام قصر الإمبراطور، ورجع ثلاثة عن المذهب اليعقوبي، وأعيد تعميدهم، ولكنهم لم يجدوا السكنينة التي يرجونها، وصاروا موضع السخرية كأنهم شياطين.

وأخيراً لم يستطع رؤساء الكنيسة السريانية أن يقيموا في مقر بطريقتهم بعد دخول المذهب الملكاني، وبعد أن أعيدت أنطاكية إلى المسيحية، كما يقول الملكانيون، فاضطروا إلى الانتقال إلى آمد طلباً لتسامح أكثر في بلاد الكفار.

ولقد منعت الكنيسة الرسمية نصارى أرمينية من استعمال النواقيس، وكثيراً ما كان رجال الشرطة المسلمون يتدخلون بين الفرق النصرانية لمنعهم من المشاجرات، حتى عين حاكم أنطاكية في القرن الثالث الهجري رجلاً يتقاضى ثلاثين ديناراً من النصارى في الشهر، وكان مقره قرب المذبح، وعمله أن يمنع المتخاصمين من قتل بعضهم بعضاً.

وفي سنة (٣٢٢هـ) مات أسقف تنيس، وكان بينه وبين البطريرك وحشة، فلما مات إنقسم أهل مصر وأهل تنيس حزبين، أحدهم مع البطريرك والآخر عليه، وقام لكل حزب

من الحزبين غرض في نصرته هواه، حتى كان الأب لا يكلم ابنه ولا المرأة تخاطب بعلمها، وكان كل فريق يستعين بالسلطان على الآخر، حتى خرج جماعة من النافرين عن البطريرك، وذهبوا إلى الإخشيد محمد بن طنج، فوجه معهم من ختم الكنيسة الجامعة التي كان الأسقف نازلاً بها ومنع الصلاة فيها وقبض على الأسقف والبطريرك.

أهل الذمة في بلاد الإسلام

وفي سنة (٢٠٠ هـ = ٨١٥ م) أراد الخليفة المأمون أن يصدر كتاباً لأهل الذمة يضمن لهم حرية الاعتقاد وحرية تدبير كنائسهم، بحيث يكون لكل فريق منهم مهما كانت عقيدتهم، ولو كانوا عشرة أنفس، أن يختاروا بطريقتهم، ويعترف له بذلك، ولكن رؤساء الكنائس هاجوا وأحدثوا شغباً، فعدل المأمون عن إصدار الكتاب.

وكان أهل الذمة يعاملون في مارستانات بغداد معاملة المسلمين، حدث وباء في أوائل القرن الرابع.

وكان موتى المسلمين وأهل الذمة يدفنون كل على حدة.

ولم يكن يوجد في المدن الإسلامية أحياء مختصة لليهود والنصارى بحيث لا يتعدونها، وإن أثر أهل كل دين أن يعيشوا متقاربين، وكانت الأديرة المسيحية منتشرة في كل أجزاء بغداد حتى كادت لا تخلوا منها ناحية، ولما كان الشرع الإسلامي خاصاً بالمسلمين فقد خلت الدولة الإسلامية بين أهل الملل الأخرى وبين محاكمهم الخاصة بهم، والذي نعلمه من أمر هذه المحاكم أنها كانت محاكم كنسية، وكان رؤساء المحاكم الروحيون يقومون فيها مقام كبار القضاة أيضاً، وقد كتبوا كثيراً من كتب القانون، ولم تقتصر أحكامهم على مسائل الزواج بل كانت تشمل إلى جانب ذلك مسائل الميراث وأكثر المنازعات التي تخص المسيحيين وحدهم مما لا شأن للدولة به. على أنه كان يجوز للذمي أن يلجأ للمحاكم الإسلامية، ولم تكن الكنائس بطبيعة الحال تنظر إلى ذلك بعين الرضا، ولذلك ألف الجاثليق تيموتيوس حوالي عام (٢٠٠ هـ = ٨٠٠ م) كتاباً في الأحكام القضائية المسيحية لكي يقطع كل عذر يتعلل به النصارى الذين يلجأون إلى المحاكم غير النصرانية بدعوى نقصان القوانين المسيحية.

وفي عام (١٢٠ هـ = ٧٣٨ م) ولي قضاء مصر خير بن نعيم، فكان يقضي في المسجد بين المسلمين، ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر على المعارج، فيقضي بين النصارى، ثم

خصص القضاة للنصارى يوماً يحضرون فيه إلى منازل القضاة ليحكموا بينهم.
ولا نجد فيما انتهى إلينا من القوانين التي وضعتها البطارقة سوى عقوبات دينية كنسية،
فمنها التوبيخ أمام الناس، والقيام على المسح والرماد أمام البيعة، ودفع كفارة مالية للبيعة،
والمنع من حضورها ومن التمتع برسوم المباركة الدينية عند الموت ومن الدفن على الطريقة
النصرانية، ومن أمثلة العقوبة أن النصراني الذي يضرب آخر يمنع من البيعة ومن رسوم المباركة
من القسيس شهرين، ويقف كل يوم أحد على المسح والرماد، وعليه أن يتصدق على الفقراء
بحسب قدرته.

الجزية

وكان أهل الذمة، بحكم ما كانوا يتمتعون به من تسامح المسلمين معهم ومن حمايتهم
لهم، يدفعون الجزية، كل واحد منهم بحسب قدرته، وكانوا ثلاث طبقات: تدفع الدنيا منها
اثني عشر درهماً، والوسطى أربعة وعشرين، والعليا ثمانية وأربعين درهماً في السنة، أو ديناراً أو
دينارين أو ثلاثة في البلاد التي عُملتْها الذهب، وكانت هذه الجزية أشبه بضريبة للدفاع
الوطني، فكان لا يدفعها إلا الرجل القادر على حمل السلاح، ولا يدفعها ذوو العاهات، ولا
المترهبون وأهل الصوامع إلا إذا كان لهم يسار، ويحكي ابن خردادبه أن الروم كانوا يأخذون
من اليهود والمجوس ديناراً في السنة، وكذلك فرض النصارى على المسلمين الجزية لما فتحوا
بلادهم، على أن غالبية دافعي الجزية كانوا يدفعون الحد الأدنى، حتى أن بنيامين يقول: «إن
اليهود في كل بلاد الإسلام يدفعون ديناراً واحداً».

وكذلك يقول بتاحيا: «إن اليهود في العراق لا يدفعون شيئاً للخليفة، وإنما يدفع الواحد
منهم في كل عام ديناراً واحداً لرأس الجالوت».

ويحكي بيلومر سيليوس جورجيوس^{١٢} في أكتوبر (سنة ١٢٤٣م)، وهو في مدينة صور،
إن كل يهودي متى بلغ الخامسة عشرة يدفع في كل عام ديناراً بوزنظياً لعاملنا، وذلك في عيد
القديسين.

وكانت الجزية تؤخذ مقسطة على ستة أجزاء أو خمسة أو أربعة أو ثلاثة أو اثنين، وقد
فرضت في أول الأمر بالعراق في كل شهر، وذلك لأن عمال المسلمين كانوا يتقاضون

^{١٢} - (Bailo Marsilius Georgius).

مرتباتهم في كل شهر، وكذلك كان الحال في الأندلس في القرن الثالث الهجري، ولكن في عام (٣٦٦هـ = ٩٧٦م) صدر أمر الخليفة الطائع بأن تؤخذ الجزية من أهل الذمة في المحرم من كل سنة بحسب منازلهم، وألا تؤخذ من النساء، ولا ممن لم يبلغ الحلم، ولا من ذي سن عالية، ولا من ذي عاهة بادية، ولا من فقير معدم، ولا من راهب متبتل. وكانت العادة جارية بإعطاء براءة لمن يدفع الجزية.

ولم يكن أخذ الجزية أرحم من غيرها من الضرائب، وإن كانت الشريعة الإسلامية قد أمرت بعدم القسوة في تحصيلها، فقد نهي في الإسلام عن اتباع الأساليب القديمة القاسية، من تعذيب، أو تكليف أصحابها مالا يطيقون، أو إقامتهم في الشمس وصب الزيت على رؤوسهم ونحو ذلك، وإنما أجاز الفقهاء حبس أهل الذمة حتى يؤدوها.

ومن الأمور التي نعجب لها كثرة عدد العمال والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الإسلامية، فكان النصارى هم الذين يحكمون المسلمين في بلاد الإسلام، والشكوى من تحكيم أهل الذمة في أبحاث المسلمين وأموالهم شكوى قديمة.

وكان بين العرب والقبط من قلة التفاهم ما كان بين اليونان والمصريين من قبل، وذلك على الرغم من أن الأقباط قد أدخلوا منذ أول الأمر في الحديث، أحاديث يوصي فيها النبي ﷺ بالأقباط خيراً، ومن هذه الأحاديث ما يبين بكل جرأة الدور الذي يقوم به الكتاب النصارى في الدولة الإسلامية، ففي حديث ذكره: «وهم (القبط) أعوانكم على عدوكم وأعوانكم على دينكم، قالوا: كيف يكونون أعواناً على ديننا يا رسول الله؟ قال: يكفونكم أعمال الدنيا، وتتفرغون للعبادة». ولقد قام الأقباط بهذا الدور خير قيام حتى إن أكثر الفتن التي وقعت بين النصارى والمسلمين بمصر نشأت عن تجبر المتصرفين الأقباط.

وقد أظهر خلفاء الفاطميين الأولون لأهل الذمة تسامحاً نعجب له، فقد كان للخلفاء الفاطميين أطباء من اليهود، ولم يحتج هؤلاء الأطباء إلى تغيير دينهم، وعظم نفوذهم حتى صار لا يعمل شيء في بلاط المعز إلا بمعونة اليهود، عرف ذلك الوزير الداھية ابن كلس الذي كان يهودياً، فأسلم وصار يتحيز إلى إخوانه في الدين من قبل، وكانت النزعة العقلية في مذهب الإسماعيلية واعتقادهم بإمكان إقامة الدليل النظري عليه مما مهد للمناقشة العلنية بين المسلمين والنصارى لأول مرة في تاريخ الإسلام.

وفي عهد العزيز بالله زاد بلاط الخليفة في إكرام النصارى، وذلك أنه كان للعزيز أصهار مسيحيون منهم (أرستس) خال السيدة ابنة العزيز بالله، وقد صير بطريكاً على بيت المقدس، وصير أخوه (أرمانوس) مطراناً على القاهرة ومصر، وكان لهما جميعاً محل لطيف عند العزيز وتقدم في مملكته.

على أن كثيراً ممن أسلموا إنما تظاهروا بالاسلام تظاهراً، ومنهم محسن بن بدوس الذي قتل (عام ٤١٥ هـ = ١٠٢٤ م) وهو يلي بيت المال إذ ذاك، فقد قيل إنه لما قتل وجد أغلف لأنه كان نصرانياً، وكان قد ظاهر عند إسلامه أنه أحضر الخاتن وختنه، ولم يكن من ذلك شيء.

الشيعة

لما جاء القرن الرابع الهجري كان حزب الخوارج قد فقد ما كان له من شأن، بعد أن كان أقدم حزب يناويء الخلافة الرسمية، وأصبح الخوارج مفرقين في وسط المملكة الإسلامية، يؤلفون جماعات صغيرة صغيرة لها مذهبها الخاص، وكان لهم خروج وحروب بديار ربيعة وعمان وغيرها في أوائل القرن الرابع، ولم تكن لهم قوة وصول إلا في الأطراف: في بلاد سجستان ونواحي هراة، وكذلك في الغرب، حيث دخل فيهم البربر المقيمون على شاطئ مضيق جبل طارق.

ولقد أبانت لنا مباحث فلها وزن بصورة أدنى إلى الصواب إن مذهب الشيعة ليس . كما كان يعتقد البعض . رد فعل من جانب الروح الإيرانية يخالف الإسلام، ومما يؤيد أبحاث فلها وزن التوزيع الجغرافي للشيعة في القرن الرابع، وقد ألمح الخوارزمي في أواخر القرن الرابع إلى أن العراق هو الموطن الأول للشيعة، وكانت الكوفة، وبها قبر علي عليه السلام أكبر مركز للشيعة حتى ذلك العهد.

وفي غضون القرن الرابع إمتد مذهب الشيعة إلى البصرة، وهي المنافس القديم للكوفة والتي كان يقال عنها في القرن الثالث: أما البصرة وسواها فقد غلب عليها عثمان وصنائع عثمان فليس بها من شيعتنا إلا القليل، وأما الكوفة وسواها فقد غلب عليها علي عليه السلام.

وشيعته، وفي البصرة أضطر أبو بكر الصولي (المتوفى عام ٣٣٠هـ=٩٤٢م) أن يستتر حتى مات لأنه روى خبراً في علي عليه السلام، فطلبتة الخاصة والعامه لتقتله، وفي القرن الخامس الهجري كان في البصرة ما لا يقل عن ثلاثة عشر مكاناً تتصل بذكرى علي عليه السلام وكان يقدها الشيعة، بل كان يوجد في المسجد الكبير في ذلك الوقت أثر من آثار علي عليه السلام يعرض للناس، وهو قطعة من الخشب طولها ثلاثون ذراعاً وعرضها خمسة أشبار وسمكها أربعة أصابع، يقال إن علياً عليه السلام جاء بها من الهند، وكانت الشام منذ أول الأمر تربة غير صالحة لدعوة العلويين، ويحكى أن أبا عبد الرحمن النسائي (٢١٥ - ٣٠٣) دخل دمشق، وكان يتشيع، فسئل عن معاوية وما روي من فضائله فقال: أما يرضي معاوية أن يخرج رأساً برأس حتى يفضل؟ وفي رواية أنه قال: ما أعرف له فضيلة إلا «لا أشبع الله له بطناً»^{١٣} فما زالوا يدفعونه حتى أخرجوه من المسجد وداسوه ثم داسوه، ثم حمل إلى الرملة، فمات وهو منقول بسبب ذلك الدوس.

وكان أهل طبرية ونصف نابلس وقدس وأكثر عمان شيعة.

ورغم قيام الدولة الفاطمية نلاحظ إن حزب الشيعة لم يتقدم إلا قليلاً، وإذا كان ناصر خسرو قد وجد أهل طرابلس في عام (٤٢٨هـ = ١٠٣٧م) شيعة، فقد جاء ذلك من أن بني عمار، وهم إحدى الأسرات الصغيرة الكثيرة على الأطراف، كانوا هناك على مذهب الشيعة.

وكانت جزيرة العرب شيعة كلها عدا المدن الكبرى مثل مكة وتهمامة وصنعاء وقرح، وكان للشيعة غلبة في بعض المدن أيضاً مثل عمان وهجر وصعدة.

وفي بلاد خوزستان التي تلي العراق كان نصف الأهواز وهي القصبة، على مذهب الشيعة، أما في فارس فكان الشيعة كثيرين على السواحل التي تتصل اتصالاً وثيقاً بالعراق وخصوصاً بالعرب المتشيعين.

وكان في قم فرقة من الغلاة وهم الغرابية، ومذهبهم أن المال كله للبت، فلما ولي عليهم قاض حكم للبت بالنصف هددوه بالقتل، وهم قوم يذهبون إلى هذه المقالة لأجل فاطمة (سلام الله عليها).

^{١٣} - قاله رسول الله صلى الله عليه وآله دعاء علي معاوية، انظر شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد المعتزلي، ج ١٥ ص ١٧٦.

وفي عام (٢٠١ هـ = ٨١٦ م) دفنت في قم السيدة فاطمة عليها السلام ابنة الإمام الثامن الرضا عليه السلام، لأن قم كانت في ذلك الوقت أحب مكان يدفن الفرس فيه موتاهم، بعد مشهد. وفي ذلك العصر لم يكن قد تم لمذهب الشيعة افتتاح البلاد التي يملكها اليوم، ولكنه كان سائراً في أحسن طريق يوصله إلى ذلك، بل كان الاضطهاد مما يساعد هذا المذهب على الانتشار.

ثم إن الطريقة التي سار عليها ابن بابويه القمي، أكبر علماء الشيعة في القرن الرابع الهجري، في كتابه المسمى (كتاب العلل)^{١٤} تذكرنا بطريقة علماء المعتزلة الذين يبحثون عن علل كل شيء.

وكان أحد خطباء الشيعة ببغداد في عام (٤٢٠ هـ = ١٠٢٩ م) يدعو في خطبة الجمعة بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله، فيقول: وعلى أخيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام مكلم الجمجمة، ومحبي الأموات، البشري الإلهي، مكلم فتية أصحاب الكهف.

يقول القمي (المتوفى عام ٣٥٥ هـ = ٩٦٦ م): «... إذا نظرت السماء حمراء، كأنها دم عبيط، ورأيت الشمس على الحيطان، كأنها الملاحف المعصفرة، فاعلمي أن سيد الشهداء الحسين عليه السلام قد قتل».

وكذلك ذهب الشيعة في السيدة فاطمة عليها السلام إلى ما يشبه صفات السيدة مريم عليها السلام، فهي قد سميت البتول مثل مريم.

ويروي الشيعة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه أجاب من سأله: ما البتول؟

فقال صلى الله عليه وآله: البتول التي لم تر حمرة قط، أي لم تحض، فإن الحيض مكروهة في بنات الأنبياء. وكانت ملابس خلفاء الفاطميين وخطبائهم أبيض. أما اللون الأخضر الذي يتميز به العلويون اليوم فإن أول من أمر باتخاذ سلطانه مصر شعبان بن حسين (المتوفى عام ٧٧٨ هـ = ١٣٧٦ م).

ويروي أن عوانة بن الحكم (المتوفى عام ١٤٧ هـ = ٧٦٤ م) كان يضع أخباراً لبني أمية، وعامة أخبار المدائني مأخوذة عنه، وإذا كان أحد الشعراء حوالياً (عام ٣٠٠ هـ = ٩١٢ م) يعزو أساطير الشيعة إلى قلة معرفتهم بالأخبار، فإن المقدسي يحكي لنا أنه كان يوماً بجامع واسط،

^{١٤} - (علل الشرائع) للشيخ الصدوق عليه السلام.

وإذا برجل قد اجتمع عليه الناس، فدنا منه، فإذا هو يروي حديثاً بسنده عن النبي ﷺ: إن الله يدني معاوية يوم القيامة، فيجلسه إلى جنبه، ويغلفه (?) بيده، ثم يجلوه على الناس كالعروس.

فقال له المقدسي: بماذا؟ قال: بمحاربتة علياً ؑ. فقال له المقدسي: كذبت يا ضال! فقال: خذوا هذا الرافضي، فأقبل الناس عليه، فعرفه بعض الكتبة ودفعهم عنه. وكذلك حكى المقدسي أنه كاد أن يبطش به لأنه أنكر على رجل من عبّاد إصفهان قوله إن معاوية نبي مرسل.

على أن علياً ؑ لم يصبح موضع النزاع، ومضى الوقت الذي نجد فيه خليفة عباسياً مثل المتوكل (٢٣٣- ٢٤٧هـ = ٨٤٧- ٨٦١م) شديد البغض لعلي ولأهل بيته ؑ. حتى كان من جملة ندمائهم رجل يشد على بطنه تحت ثيابه مخدة، ويكشف رأسه وهو أصلع، ويرقص، ويقول: قد أقبل الأصلع البطين أمير المؤمنين، يعني علياً ؑ. والمتوكل يشرب ويضحك.

وكانت الحكومة إذا أرادت أن تعاقب شيعياً لمذهبه لم تذكر اسم علي ؑ بل يجعل سبب العقوبة أنه شتم أبا بكر وعمر، وفي عام (٣٥١هـ = ٩٦٢م) كتب عامة الشيعة بأمر معز الدولة على المساجد ما هذه صورته: لعن الله معاوية بن أبي سفيان، ولعن من غصب فاطمة فدكاً، ومن منع الحسن ؑ أن يدفن عند قبر جده، ومن نفى أبان بن عثمان فلما جاء الصباح محاه بعض الناس، فأشار الوزير المهلي على معز الدولة أن يكتب موضع المحو: لعن الله الظالمين لآل رسول الله ﷺ، ولا يذكر أحداً إلا معاوية، ففعل ذلك.

وقد لجأ كثير من العلويين إلى مصر التي لم تكن تربطها بعرش الخلافة ببغداد رابطة الطاعة التامة، وفي سنة (٢٣٦هـ = ٨٥٠م) كان المتوكل قد حبس الطالبين في سر من رأى، وورد كتابه إلى والي مصر بإخراج الأشراف العلويين وإعطاء الرجل منهم ثلاثين ديناراً والمرأة خمسة عشر ديناراً، فقدموا العراق، ثم أمروا بالخروج إلى المدينة، ولكن كثيراً من العلويين استطاعوا أن يفلتوا من هذا النظام، وسرعان ما ثاروا وبايعوا واحداً منهم، فورد كتاب المنتصر إلى والي مصر بالألا يقبل علوي ضيعة، ولا يركب فرساً، ولا يسافر من القسطنطينية إلى طرف من أطرافها، وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد، وإن كانت بين أحد الطالبين وبين أحد من سائر الناس خصومة فليقبل قول خصم الطالب فيه، ولا يطالب ذلك الخصم بينه..

فلا عجب إذن نرى مصر تشهد حوالي (عام ٢٥٠ هـ) ثورة للعلويين بعد أخرى، وفي القرن الرابع الهجري بدأت فتن المغرب تستولي على مصر، فوحد ذلك بين أغراض العلويين السياسية وبين أغراض الشيعة.

وقد بلغت الفتنة في يوم عاشوراء (سنة ٣٥٠ هـ = ٩٦١ م) مبلغاً شديداً في العاصمة، فنشب القتال بين الجند السنين من السودان والترك وبين الشيعة، وكان الجنود يسألون من يجدونه: من خالك؟ فإن لم يقل: معاوية ضربه، وطاف أحد السودان المتهيجين بالطرقات، وهو يصيح: معاوية خال علي، فتابعه العامة، وأصبحت هذه هي صيحة أهل السنة بمصر حين يريدون قتال الشيعة، وقد حافظت الحكومة على النظام بقدر استطاعتها، وفي (عام ٣٥٣ هـ = ٩٦٤ م) ضرب أحد كبار الشيعة، وحبس حتى مات في السجن، وقام على قبره قتال بين الجند وأصحابه.

ولما دخل جوهر مصر وصارت الحكومة شيعية كانت العامة عند أقل إشارة لهم يصيحون صيحة السنة على الشيعة من نحو: معاوية خال علي، ففي سنة (٣٦١ هـ = ٩٧٢ م) قبض على عجوز عمياء تنشد في الطريق، وحبست، ففرغ جماعة من الرعية، نادوا بذكر الصحابة، وصاحوا: معاوية خال المؤمنين وخال علي، فبعث جوهر ونادى في الجامع العتيق: «أقلوا القول ودعوا الفضول، فإننا حبسنا العجوز صيانة لها، فلا ينطقن أحد إلا حلت به العقوبة الموجهة»، ثم أطلقت العجوز.

بل أيضاً يحكى أنه في عام (٣٦٢ هـ = ٩٧٣ م) شغب جماعة من الصيارفة السنين وصاحوا: معاوية خال علي بن أبي طالب (عليه السلام)، هذا مع أن الصيارفة أهدأ العناصر السياسية. على أن حكومة الفاطميين كانت تتوخى جانب الحكمة في الجملة، ولم تكن حكومة متعصبة، ولكنها جعلت أحسن المناصب في القضاء والإفتاء للشيعة وحدهم. وقد بلغ من تسامحها أنها لم تمنع العامة في (عام ٣٦٢ هـ = ٩٧٣ م) من الاحتفال بعيد اتخذه أهل السنة، بعد عيد الغدير عند الشيعة، مضاهاةً للشيعة ونكايةً لهم، وهو اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ الغار هو وأبو بكر، وبالغوا فيه.

يحدثنا المقدسي أنه لم يجد الشيعة إلا في أعلى القصبية، وكذلك أهل صندفا. وكانت في الغرب على الحدود بين الجزائر وتونس توجد أيضاً مدينة نقطة، وجميع أهلها شيعة، وكانت

تسمى الكوفة الصغرى. على أنه بعد التدهور السياسي للفاطميين سرعان ما رجعت موجة هذا التيار الشيعي، حتى لم يبق له أثر.

وكانت بغداد هي العاصمة بمعنى الكلمة الحقيقي، وآية ذلك أن جميع الحركات الروحية في مملكة الإسلام كانت تتلاطم أمواجهها في بغداد، وكان بها لجميع المذاهب أنصار. ولكن أكبر حزين كانا بها في القرن الرابع الهجري هما الحزبان المتشددان في التمسك بمذهبهما، وهما الحنابلة والشيعة، وكان أنصار الشيعة يسكنون بنوع خاص حول سوق الكرخ، فأهلها كلهم شيعة إماميه لا يوجد فيهم سني ألبتة.

ورغم ما قام به المتوكل من تشديد في اضطهاد الشيعة في القرن الثالث الهجري، نلاحظ أن قوتهم كانت عظيمة حتى أن الخليفة المعتضد عزم في عام (٢٨٤هـ = ٨٩٧م) على لعن معاوية على المنابر، وأمر بإنشاء كتاب في ذلك وصلت إلينا صورته، فخوفه الوزير من اضطراب العامة، فقال المعتضد: إن اضطرت العامة وضعت فيها السيف، فقال له الوزير: فما تصنع بالطالبيين الذين هم في كل ناحية يخرجون ويميل إليهم كثير من الناس لقربتهم من الرسول ﷺ، وفي هذا الكتاب إطراؤهم، وإذا سمع الناس كانوا إليهم أميل.

وفي سنة (٣٢١هـ = ٩٣٣م) هم علي بن يلبق، وهو من القواد الترك، مرة أخرى بأن يلعن معاوية وإبنة يزيد على المنابر، فاضطرت العامة، وكان البرهاري رئيس الحنابلة يثير الفتن هو وأصحابه.

وفي عام (٣٢٣هـ = ٩٣٥م) نودي في جانبي بغداد بألا يجتمع من الحنابلة نفسان في موضع واحد، وكان ذلك لكثرة تشرطهم على الناس وإيقاعهم الفتن المتصلة، وخرج توقيع الخليفة الراضي بكتاب بين فيه أخطاء الحنابلة وتوعدهم بالعقاب، وقد وصلت إلينا صورة هذا الكتاب، فهو يتهمهم بالطعن على خيار الأمة وبنسبة شيعة أهل بيت رسول الله ﷺ إلى الكفر، وإرصادهم بالمكارة في الطرقات والمحال وإنكار زيارة قبور الأئمة (صلوات الله عليهم أجمعين)، والتشنيع على زوارها بالإبتداع، وأن الحنابلة مع إنكارهم لذلك، يتلفقون ويجمعون لقصدهم رجل من العوام ليس بذئ شرف ولا نسب ولا سبب برسول الله ﷺ، ويأمرون بزيارة قبره والخشوع لدى تربته، وفي آخر الكتاب يقسم أمير المؤمنين بالله لئن لم ينصرف الحنابلة عن مذموم مذهبهم ليوسعنهم ضرباً وتشريداً وليستعملن السيف في رقابهم

والنار في محالهم ومنازلهم.

وكان الحمدانيون أول أسرة شيعية تدخلت في أمور بغداد، وكان هذا التدخل مثيراً للعجب، ذلك أن ابن حمدان علي شدة تشييعه وميله إلى علي وأهل بيته عليه السلام سعى في البيعة لابن المعتز علي انحرافه عن علي عليه السلام وغلوه في النصب.

ولكن الأحوال تغيرت لما استولى الديلم على بغداد، وكانوا قد دخلوا في الإسلام حديثاً على يد أحد العلويين، فلم يكدم معز الدولة يدخل بغداد حتى قبض على الخليفة المستكفي وأنزله عن عرشه على صورة مهينة. وكان من الأسباب الظاهرة في ذلك أن المستكفي كان قد قبض على الشافعي رئيس الشيعة.

وفي سنة (٣٤٩هـ = ٩٦٠م) قامت فتنة بين العامة ببغداد، وتعطلت الجمعة بمساجد أهل السنة لاتصال الفتن، ولم تقم الجمعة إلا في مسجد براثا الشيعي.

مآتم عاشوراء

وفي عام (٣٥٢هـ) أمر معز الدولة الناس أن يحتفلوا بيوم عاشوراء، وهو أكبر عيد للشيعة، وأن يظهروا الحزن. فأغلقت الأسواق وعطل البيع والشراء، ولم يذبح القصابون، ولا طبخ الهراسون، ولا ترك الناس أن يستقوا الماء، ونصبت القباب في الأسواق، وعلقت عليها المسوح، وخرجت النساء منشرات الشعور مسودات الوجوه، قد شققن ثيابهن يدرن في البلد وينحن ويلظمن وجوههن على الحسين عليه السلام.

وفي هذا اليوم كان يزار قبر الحسين عليه السلام بكربلاء.

ويصف البيروني ما جرى عليه بنو أمية من إظهار الفرح في يوم عاشوراء، وما كان يظهره الشيعة من حزن، ثم يقول: «ولذلك كره فيه العامة تجديد الأواني والثياب».

عيد الغدير

وفي اليوم الثامن عشر من ذي الحجة في هذا العام جاء عيد الغدير (غدير خم)، فاحتفل به الشيعة ببغداد، وزعموا أنه اليوم الذي عهد فيه الرسول صلى الله عليه وآله إلى علي بن أبي طالب عليه السلام واستخلفه^{١٥}، وفيه أظهروا السرور بأمر معز الدولة، على خلاف صنيعهم في يوم عاشوراء،

^{١٥} - وهو كذلك، كما ورد في متواتر الروايات عند الفريقين، راجع موسوعة الغدير للعلامة الأميني عليه السلام، وفي هذا اليوم نزل قوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾. سورة المائدة: ٣.

فصبوا القباب وعلقوا الثياب، وأظهروا الزينة. وفي ليلته أشعلت النيران بمجلس الشرطة، وضربت الدبادب والبوقات، وفي صبيحته نحروا جملاً وبكروا إلى مقابر قريش.

أما بنو أمية فكانوا قد اتخذوا يوم عاشوراء من قبل يوم السرور، فلبسوا فيه ما تجدد وتزينوا واكتحلوا وعيدوا وأقاموا الولائم والضيافات وطعموا الحلاوات والطيبات، وجرى الرسم في العامة على ذلك أيام ملكهم، وبقي فيهم بعد زواله عنهم.

يقول القمي (المتوفى عام ٣٥٥ هـ = ٩٦٦ م) مشدداً فيمن يفرح بيوم عاشوراء: «من ترك السعي في حوائجه يوم عاشوراء قضى الله له حوائج الدنيا والآخرة. ومن كان يوم عاشوراء يوم مصيبته وحزنه وبكائه يجعل الله عز وجل يوم القيامة يوم فرحه وسروره... ومن سمى يوم عاشوراء يوم بركة وادخر بمنزله شيئاً لم يبارك له فيما ادخر، وحشر يوم القيامة مع يزيد وعبيد الله بن زياد وعمر بن سعد (لعنهم الله) إلى أسفل درك من النار»^{١٦}.

ثم إن أهل السنة أرادوا أن يعملوا لأنفسهم ما يكون بإزاء يوم عاشوراء، فجعلوا بعده بثمانية أيام يوماً نسبوه إلى مقتل مصعب بن الزبير، وزاروا قبره في مسكن، كما يزار قبر الحسين عليه السلام بكربلاء، وكذلك عملوا بإزاء يوم الغدير بعده بثمانية أيام يوماً ادعوا أنه اليوم الذي دخل فيه النبي صلى الله عليه وآله وأبو بكر في الغار، وعملوا في هذا اليوم ما يعمله الشيعة في يوم الغدير. وكان أول ما عمل أهل السنة ذلك في يوم الجمعة لأربع بقين من ذي الحجة عام (٣٨٩ هـ = ٩٩٩ م).

ومما كان له شأن في ثورات الشيعة في القرن الرابع الهجري أن مشهديهم الكبيرين المقدسين عندهم كانا بالعراق.

إن أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان (المتوفى عام ٣١٧ هـ = ٩٢٩ م) جعل على قبر علي عليه السلام حصناً منيعاً، وابتنى على القبر قبة عظيمة مربعة الأركان لها باب من كل جانب، وسترها بفاخر الستور، وفرشها بثمانين الحصر السامانية.

ولما مرض الوزير أبو محمد بن سهلان واشتد عليه المرض نذر إن عوفي، بناء سور على مشهد أمير المؤمنين علي عليه السلام، فعوفي، فأمر ببناء سور عليه عام (٤٠٠ هـ = ١٠١٠ م) وأول من دفن في هذا المشهد من العظماء، فيما أعلم، رجل من أهل البصرة عام (٣٤٢ هـ

^{١٦} - هذه رواية عن الإمام الرضا عليه السلام، راجع الأماي للشيخ الصدوق، ص ١٢٩، المجلس ٢٧.

(=٩٥٣م). وأول من دفن فيه من الأمراء عضد الدولة (المتوفى عام ٣٧٢هـ = ٩٨٢م) فحمل إليه بعد أن كان قد دفن بدار الملك ببغداد. وعضد الدولة هذا هو الذي أمر بإعادة بناء مشهد الإمام الحسين بن علي t، بعد أن كان الخليفة المتوكل قد أمر في عام (٢٣٦هـ ٨٥٠م) بهدم قبره وهدم ما حوله من المنازل وبأن يجرث ويذر ويسقى. وفي عام (٣٩٩هـ ١٠٠٩م) توفي أبو العباس الكافي الوزير بالري، وكان قد وصى قبل موته أن يدفن في مشهد الحسين t فكتب ابنه إلى العلويين أن يبيعوه تربة بخمسائة دينار، فقال الشريف إذ ذاك: هذا رجل التجأ إلى جوار جدي، ولا آخذ لترتبه ثمناً، وأعطيت للرجل تربة من غير أن يدفع شيئاً. ولم يصل إلينا وصف لداخل مشهد الحسين t بكرلاء قبل وصف ابن بطوطة له في القرن الثامن الهجري، أما قبل ذلك فيذكر أن القبر كان يغطى بقماش تاريخي، وحوله شموع مضاءة. ثم إن عميد الدولة بن بويه بنى على قبر الإمام علي الرضا t بطوس حصناً ومسجداً لم يكن بخراسان أحسن منه.

تعليقات^{١٧}

يقول جولد تزيهر في صفحة ٢٢٢ من الترجمة الإنجليزية:

إن من الحقائق الأولية أن مسألة الخلافة قسمت المسلمين إلى فرقتين: أهل السنة، والشيعة، وكان لأهل البيت فريق يعترف سراً بحقوقهم، حتى في عهد الخلفاء الثلاثة الأولين، ولكن هذا الفريق لم يكن يجاهر بالخصام. وبعد عصر هؤلاء الخلفاء صار يعارض كل من حكم من غير أبناء علي t، وكانت هذه المعارضة موجهة أول الأمر إلى الأمويين، ثم إلى من بعدهم ممن لم تتوافر فيهم الشروط التي يوجبها الشيعة في الإمام، وهم حين يبينون وجوه النقص في هؤلاء الحكام يقررون الحقوق الشرعية لأبناء النبي ﷺ ممثلة في ذرية علي وفاطمة ﷺ وكما أنهم اتهموا الخلفاء الثلاثة الأولين سراً بأنهم معتصبون ظالمون، فكذلك عارضوا النظام السياسي في الدولة الإسلامية سراً وجهاً في كل العصور.

^{١٧} - هذه التعليقات الملحقه بالفصول هي تلخيص لتعليقات المرحوم العلامة (حدا بخش الهندي) على الترجمة الإنجليزية لهذا الكتاب.

أوجب أهل السنة تنصيب خليفة مهمته تنفيذ أحكام الشريعة وفروضها، وحماية حدود بلاد الإسلام والدفاع عنها، والإشراف على تعبئة الجيوش، وأخذ ما فرض على المسلمين في أموالهم، وتقسيم غنائم الحرب بينهم بالعدل، وغير ذلك من المهام، وبالإختصار فالخليفة هو مثل السلطة القضائية والإدارية والحربية، وهو مجرد خليفة لمن تقدمه، ويختاره المسلمون بالطرق العادية (بالإنتخاب أو بتعيين سلفه له) لسياستهم، ولا يشترط فيه أن يكون أعلم المسلمين. أما الإمام عند الشيعة فهو رئيس المسلمين ومعلمهم، بفضل ما وهبه الله من الصفات، وبحكم وراثته للنبي ﷺ، وهو يحكم ويعلم متلقياً ذلك عن الله على نحو ما كان موسى t يسمع كلام الله من الشجرة، فكأنه يتلقى عن الله رسالة مستمرة، وهو يجمع إلى هذه المزية صفات خاصة من طور فوق طور الإنسان. ويزعم الشيعة أن وراثة الإمامة تنقلت من آدم t، حتى انتهت إلى عبد المطلب جد النبي ﷺ وجد علي t، ومن عبد المطلب انقسم النور قسمين، أحدهما انتقل إلى عبد الله والد النبي ﷺ، والآخر إلى أخيه عبد المطلب والد علي t ثم سار النور من علي t إلى ذريته.

وهذا النور الذي في روح الإمام يجعله إمام عصره، ويجعل له قوى روحانية تتجاوز حدود القدرة الإنسانية، وروح الإمام أنقى من أرواح سائر الناس، لأنه مبرأ من بواعث الشر، متحل بالفضائل الإلهية.

يذهب البعض إلى أن الفرق بين مذهب أهل السنة ومذهب الشيعة أن الأولين يعترفون بأن السنة أصل من أصول العقائد والأحكام الدينية بعد القرآن، وأن الشيعة يرفضون السنة. يقول جولد تزيهر: إن هذا خطأ جوهري في فهم مذهب الشيعة، ومنشؤه اختلاف التسمية بين الفريقين، فليس بين الشيعة من ينكر السنة، بل هم يقرون بالسنة التي حملها أهل البيت، (عليهم الصلاة والسلام) ويذهبون إلى أن خصوم الشيعة يعتمدون في أخذ السنة على الصحابة الغاصبين. وثم أحاديث مشتركة بين الشيعة وأهل السنة لا تختلف إلا في السند.

ومما يدل أيضاً على اعتداد الشيعة بالسنة النبوية أنهم كتبوا الكثير في السنة وما يتعلق بها، وأنهم وضعوا أحاديث كثيرة وأذاعوها، فالشيعة لا يعارضون أهل السنة بصفاتهم منكرين للسنة، بل بصفة أنهم أولياء أهل البيت (عليهم الصلاة والسلام) أو الخاصة الذين يمتازون

إدارة الدولة

كانت دولة الخلفاء أشبه باتحاد يتألف من ولايات كثيرة، ويختلف وثاقة وتماسكاً، ولم تكن علاقة السلطة المركزية بهذه الولايات تشرف عليها دواوين إقليمية، وإنما كان لكل ولاية ديوان ببغداد يدير شؤونها.

وكان كل من هذه الدواوين يتألف من قسمين:

أولهما: الأصل، وهو يختص بوضع لضرائب وحملها إلى بيت المال، ومراقبة الضرائب وتقوية مواردها، أي أن هذا القسم يختص بالإدارة.

وثانيهما: الزمام أو ديوان المال. ولما جاء الخليفة المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ - ٩٠٢ م)، ضم دواوين الولايات كلها، وألف منها ديواناً سماه ديوان الدار، له ثلاثة فروع: ديوان المشرق، وديوان المغرب، وديوان السواد (أي العراق).

وكذلك وضع هذا الخليفة أزمة هذه الدواوين كلها في يد رئيس واحد، ثم جعل الأصول كلها في يد رئيس واحد في سنة (٣٠٠ هـ = ٩١٢ م)، بحيث جاء القرن الرابع الهجري، وإدارة الدولة تنقسم إلى ما يشبه وزارتين إحداهما للداخلية، وهي ديوان الأصول، والأخرى للمالية وهي ديوان الأزمة. وكان كل ديوان كبير ينقسم أقساماً كثيرة تسمى دواوين أيضاً:

١ . ديوان الجيش، وله مجلسان: أحدهما مجلس التقرير، والثاني مجلس المقابلة. ويجري في الأول أمر استحقاقات الرجال، ومعرفة أوقات إعطياتهم، وتقدير أرزاقهم، فأما الثاني فيختص بالنظر في السجلات، وتصفح الأسماء، ونحو ذلك.

٢ . ديوان النفقات في بغداد، وأكبر مهامه حاجات دار الخلافة. وكان أكثر أرض العراق مضمناً، فكان على المتضمنين أن يقوموا بالوفاء والنفقات. وهذا الديوان ينقسم إلى المجالس الآتية.

أ: مجلس الجاري، ويختص بأمر استحقاقات الحشم.

ب: مجلس الأنزال، وهو الذي يقوم بحاسبة التجار الذين يقيمون الوظائف من الخبز واللحم والحيوان، والحلوى والفاكهة، وغير ذلك من سائر صنوف الإقامة والآنزال.

ج: مجلس الكراع، ويجري فيه أمر علوفة الكراع وغيره، مثل الخيل والشهاري والبراذين والبالغ والحمير والإبل وغيره مما يعتلف من الطير والوحش، ويجري فيه أمر سياسة الكراع وعلاجه، وأرزاق القوام والراضة ونحو ذلك.

د: مجلس البناء والمرمة، وهو مجلس يكبر ويصغر على حسب الخلفاء في الإغراق في البناء أو الاكتفاء بيسيره، ويجري فيه محاسبة الزراع والمهندسين وباعة الجص والآجر والنورة والأسفيداج وأصحاب الساج والنجارين والمزوقين والمذهبين وسائر الصناع.

هـ: مجلس الحوادث، ويجري في أمر النفقات الحادثة (أي غير العادية) في كل وجه من وجوهها.

و: مجلس الإنشاء والتحرير.

ز: مجلس النسخ.

٣ - ديوان بيت المال، وهو في بغداد يشرف على ما يرد على بيت المال من الأموال وما يخرج من ذلك من وجوه النفقات والإطلاقات. ويجب أن تمر به الكتب التي فيها حمل مال، قبل انتهائها إلى دواوينها، لتثبت فيه، وكذلك سائر الكتب النافذة إلى صاحب هذا الديوان علامة على الكتب والصكوك والإطلاقات، يتفقدتها الوزير وخلفاؤه ويراعونها ويطالبون بها.

٤ - ديوان المصادرين، وكانت الوثائق التي يدفع بمقتضاها في هذا الديوان تكتب على نسختين، إحداهما للديوان والأخرى للوزير.

٥ - ديوان الرسائل، وكان يسمى في مصر على عهد الفاطميين ديوان الإنشاء، وكان صاحب هذا الديوان بمصر في أوائل القرن الخامس الهجري يتقاضى في كل شهر ثلاثة آلاف دينار، عدا ما كان يكتبه من السجلات والعهودات وكتب التقليدات، فقد كان له على ذلك رسوم يستوفيهها.

٦ - ديوان البريد، وتأتي لصاحبه الكتب من جميع النواحي، وهو المنفذ لها إلى مواضعها، وهو يتولى عرض كتب البريد والأخبار في جميع النواحي على الخليفة، أو يعمل جوامع لها، وله النظر في أمر المرتبين في السكك، وتنجيز أرزاقهم، وتقليد أصحاب الخرائط في سائر الأمصار، ولا غنى له، بعد أن يكون ثقة عند الخليفة، عن معرفة الطرق والمسالك إلى جميع النواحي، بحيث يجد عنده الخليفة من المعرفة ما يحتاج إليه عند إنقاذ جيش أو غيره. وكانت

معرفة الأخبار وإبلاغها قد بلغت درجة عظيمة من الرقي في الدولة الإسلامية.

٧ . ديوان التوقيع، وإليه تنتهي رقاع من يسأل شيئاً عند الخليفة، بعد أن يراها صاحب ديوان الدار، ويقتص المسألة والرقعة، ويشرح حالها، وما لعله يكون جرى فيها، وبعد أن يستطلع صاحب ديوان التوقيع رأي الخليفة فيها، ويوقع عليها بخطه في ديوان التوقيع يرسل إلى صاحب ديوان الدار بنسختها أو اقتصاص ما تضمنت، ومن ديوان الدار ترسل إلى صاحب الديوان الذي تجري فيه المسألة (كالخراج أو الضياع أو المال أو النفقات ... الخ).

٨ . ديوان الخاتم، وبه تمر وتثبت فيه الكتب التي يحتاج إلى ختمها بخاتم الخليفة، وذلك بعد أن يمر الكتاب على دواوين عدة وبعد المقابلة.

٩ . ديوان الفض، ومنزلة هذا الديوان من الخليفة منزلة مجلس الاسكدار في ديوان الخراج من المتولي له، لأن سبيل الكتب التي ترد من العمال في النواحي إلى الخليفة أن يكون ابتداءً وخروجها إلى الدواوين منه، بعد فضها وأخذ جوامعها ليقراها الخليفة ويوقع فيها بما يراه.

١٠ . ديوان الجهبذة، ويجري فيه من الأموال مال الكسور والكفاية والوقاية، وما يجري مجرى ذلك من توابع أصول الأموال، ثم ما يزيده شرار الجهابذة من الفضول على هذه التوابع بسبب إعنات من عليه مال.

١١ . ديوان البر والصدقات.

وكان أصحاب الدواوين في أوائل القرن الرابع الهجري على ثلاث طبقات. وكان صاحب ديوان السواد يقبض أعلى مرتب بين أصحاب الدواوين، وهو خمسمائة دينار في كل شهر. وفي عهد الخليفة المعتضد (٢٧٩-٢٨٩هـ = ٨٩٢ - ٩٠٢م) بلغت أرزاق أصحاب الدواوين كلها من أكابر الكتاب إلى الخزان والبوابين الأعوان، وثمان الصحف والقراطيس والكاغد أربعة آلاف وسبعمائة دينار في الشهر، وذلك عدا ما كان يقبضه الوزراء، وعدا أرزاق كتاب دواوين الإعطاء وخلفائهم على مجلس التفرقة وأصحابهم وأعوانهم وخزان بيت المال، فإن هؤلاء يأخذون أرزاقهم مما يوفرونه من أموال الساقطين وغرم المخلين بدوابهم. فكانت المرتبات التي يتقاضاها هؤلاء تتوقف على مقدار يقظتهم وعنايتهم.

وكان على رأس كل ولاية رجلان:

١. الأمير (وهو قائد الجيش).

٢. والعامل، ويسمى هذا الأخير صاحب الخراج، لأن أكبر واجباته حمل خراج الولاية إلى خزانة الدولة، وهو الذي يتولى الإنفاق على الولاية مما يحصل لديه من الأموال، لأن خزانة الدولة العامة كانت لا تتولى إلا أمر نفقات دار الخلافة والدواوين وما يتعلق ببغداد. وكان الأمير يخاطب في المراسلة بما يخاطب به العامل، وكانت منشورات الوزير ترسل لكل منهما في وقت واحد. ولكن الأمير كان يمتاز على صاحبه لأن له الصلاة بالناس، وهذا يجعله رئيس المسلمين جميعاً في ولايته.

ويشكو ديونيسيوس^{١٩} (المتوفى عام ٢٢٩هـ = ٨٤٣م) في آخر كتابه في التاريخ، من كثرة عدد العمال، لأنهم بهذه الكثرة يغتصبون عيش الفقير بكل الوسائل، ففي مدينة الرقة مثلاً، وهي مدينة صغيرة على نهر الفرات كان يوجد:

١. قاض.

٢. وكاتب سلعة يعرف بالبندار، يطالب بالخراج ووجوه المال.

٣. وصاحب جند.

٤. وصاحب بريد ينهي أخبار الولاية للخليفة.

٥. ومتول للضياع السلطانية (الصوافي).

٦- وصاحب معونة. وكان يوجد مثل هؤلاء الولاة في كل عمل من أعمال الدولة السامانية.

ولما كانت الصبغة الغالبة على عمال الدواوين هي الصبغة الاقتصادية المالية، فقد كان لا بد للواحد منهم من أن تتوفر لديه بعض خصال التاجر، وكان الفارسي أمهر تاجر في المملكة الإسلامية. ولا تزال الكفاية الإدارية موروثاً في الفرس إلى يومنا هذا، فيحدثنا الخبير النمساوي الذي قام بتنظيم البريد في فارس أن كل فارسي يحس من نفسه الصلاحية لكل عمل، وهو لا يتردد في أن يدخل اليوم عملاً إدارياً مدنياً، ويقوم به، ثم يكون غداً في منصب حربي. وهذه من خصال الفرس القديمة، ويحكى أنه كان لبختيار بن معز الدولة كاتب فارسي، وكان مستولياً عليه، ثم تحقق بالجندية، وادعى الشجاعة، وأعاره الناس من

^{١٩} - Dionysius Von Tellmachre

ذلك ما لم يكن عنده، تقريباً إليه، ثم عزم أخيراً على تقلد الجيش والتسمية بالإسفهسلار. وكان لكل شيء ثمن يبذل وخصوصاً لمناصب الدواوين. وكان العامل متى تقلد المنصب حاول أن يسترد ما خسره مستعيناً على ذلك بالخيانة، فكان العمال مثلاً يعينون أرزاقاً لقوم لا يحضرون إلى العمل، وأرزاقاً بأسماء قوم لم يخلقوا، وكانوا يقيدون برسم الفقهاء والكتاب مرتبات بأسماء الغلمان والوكلاء في الحاشية، وكانوا يصرفون الورق والقراطيس، ثم يبيعونه فيحصل لهم منه مال.

تعامل الناس مع أعوان السلطان

وكان أهل التقى في ذلك الوقت يعتبرون عمال السلطان والفساق فريقاً واحداً، كما جمع العهد الجديد بين المذنبين وآخذي الضرائب الجمركية. ويحكى أنه بلغ من دين بعض أهل الورع أنه امتنع من نقش فص للأمير، فزاد في الأجرة حتى بلغت مائة دينار، فأبى الرجل، ثم جاء إليه بعد ذلك تاجر فأعطاه على نقش بعض الفصوص عشرة دراهم، فأخذها، وذلك اجتهاداً منه في ألا يأخذ الحرام.

وكان بعض الناس لا يسلم على عامل السلطان بما تجري به العادة من قول: السلام عليكم، بل كان البعض يقول جاداً أو مستهزئاً: تب من عمل السلطان. وقد تاب رجل مرة من عمل السلطان، ثم طلب لتقليده عملاً جليلاً، فكسر التوبة، فسماه الناس المرتد. أما مصادرة العمال فإننا نعرف من مصدر جدير بالثقة أن الإخشيد، صاحب مصر، وكان رجلاً مالياً ماهراً، هو أول من نكب عماله وكتابه مراراً. فهو مؤسس نظام مصادرة العمال وفرض الأموال عليهم. وكان العامل إذا صودر وثقل عليه عبء المصادرة تبرع له أصحابه، وجمعوا مالاً للتخفيف عنه.

وقد بدأ التهافت الشديد على الألقاب، والتكلف في أساليب المكاتبات. وقد بدأ هذا في القرن الرابع، وبقي إلى اليوم. وفي المكاتبات الرسمية كانت توجه عناية كبيرة إلى العنوانات وتعظيم شأن المخاطب وإلى الإسهاب في ذلك، على حين كان يجتم الخطاب ويوقع عليه في إيجاز.

وفي عهد المقتدر كانت تغلق الدواوين في دار الخلافة يومي الجمعة والثلاثاء، وقد أمر المقتدر (٢٧٩ . ٢٨٩ هـ = ٨٩٣ . ٩٠٢ م) بذلك لأن يوم الجمعة يوم صلاة، وكان يجبه،

لأن مؤدبه كان يصرفه فيه عن مكتبه، ولأن الناس يحتاجون في وسط الأسبوع إلى الراحة والنظر في أمورهم، والتشاغل بما يخصهم.

الوزارة الوزراء

ظهر منصب الوزير في عهد الخلفاء الأولين من بني العباس. أما في عهد بني أمية فلم تكن الوزارة مقننة القواعد، ولا مقررة القوانين، وكان ذوو الآراء من مستشاري الملك يقومون بمقام الوزراء، وكان الواحد منهم يسمى كاتباً أو مشيراً.

وفي أول القرن الرابع الهجري انتقص اختصاص الوزير، فأخذ الخليفة منه الضياع العباسية التي كانت إقطاعاً يديره الوزراء، ويحصل منه مائة وسبعون ألف دينار، وأجري للوزير رزق ثابت قدره خمسة آلاف دينار، ثم صارت سبعة آلاف في كل شهر. على أنه كان للوزير مكان ممتاز بين سائر رجال الدواوين، فكان يعطى لكل ولد من أولاده خمسمائة دينار في كل شهر، وهو مبلغ يساوي مرتب وزير.

و أكبر تغير يسترعي النظر في إدارة الدولة أننا نجد الوزير قد صار مقدماً على جميع القواد، مع أنه ليس إلا رئيس الكتاب، ومع أن الدولة قامت في الأصل على أساس حربي، وكان هذا الوضع الجديد إحياءً لنظام التدرج في المناصب إلى أن تنتهي برئيس أعلى، وهو النظام القوي الذي كان موجوداً في تاريخ الشرق القديم.

وفي أول القرن الرابع كان رسم الوزير في لباسه هو رسم سائر العمال، فكان يلبس دراعة وقميصاً ومبطنه وخفياً، وكان السواد هو اللباس الرسمي. أما في أيام الاحتفالات الرسمية فكان يرتدي ثياب الموكب، وهي قباء وسيف بمنطقة، ومع هذا عمامة سوداء، وهي الجزء الذي لا ينزعه الوزير من لباسه الذي يلبسه عادة.

وكان الخليفة يخلع على الوزير هذه الثياب، التي هي رسم الوزارة، عند تقليده، فيركب الوزير من داره إلى دار الخلافة، وبين يديه الحجاب والقواد والغلمان، ثم يعود إلى داره، وهم معه.

وإذا وصل الوزير إلى داره حضر الناس على طبقاتهم للسلام والتهنئة. وكان الخليفة يرسل له مالاً وثياباً وطيباً وطعاماً وأشربة وثلجاً.

وفي مثل مجلس الوزير كان الكتاب يجلسون أمام الوزير، كل في مكانه، ومعه دواته، وكان

رئيس هؤلاء الكتاب يجلس متقدماً عليهم.

وكان الوزير يحتفظ بصورة من الوثائق المهمة، ويضعها في جملة سجلاته، وكانت هذه متى عزل، تنقل إلى دار من يخلفه في الوزارة. ولما تقلد ابن الفرات الوزارة بعد علي بن عيسى عام (٣٠٤هـ = ٩١٦م) كادت هذه السجلات أن تبلغ سقف الخزانة التي كانت فيها، ويذكر إن بعض الرقاع الهامة السرية كانت تحفظ في سبط خيزران يكتب عليه بخط الوزير ما يحتفظ به من المهمات، وكان السبط يختم بختم الوزير.

وكان يقف على باب دار الوزير كثير من الرجال لحراستها، وقد بلغ من كثرتهم أنه كان ربما أخذ منهم ثلاثون رجلاً في وقت واحد، وأنفذوا في أمر مهم. وكان في مجلس الوزير غلمان مسلحون يسيرون بين يدي الوجوه من الناس، ويخرجون بين يدي الوزير دائماً، يجرون سيوفهم، والناس يشاهدونهم.

وكانت للوزير في دار الخلافة دار مفردة يجلس فيها، والخواص والحواشي بين يديه، حتى يستدعيه الخليفة.

وكان للوزير في الأوقات التي يكون فيها بدار الخلافة نائب يقوم في الدار لمهم عساه يعرض، وكان للوزير من بين خدم الخليفة قوم يعول عليهم في مراعاة أخباره.

وكان الخليفة هو الذي يعين وزيره، وكان في العادة يقر وزير الخليفة السابق في منصب الوزارة، وفي عام (٣٠٠هـ = ٩١٢م) أراد الخليفة أن يختار لنفسه وزيراً، وطلب من أحد ثقاته قبول الوزارة فامتنع لكبر سنه، فأرسل إليه الخليفة أسماء رجال كثيرين ليرشح منهم من يراه أهلاً للوزارة، فكتب تحت اسم كل واحد منهم بما رآه، وأشار بتعيين رجل كان قاضياً، فظن الخليفة أن وزيره غشه ولم يخلص في النصح، ولما سئل الخليفة في ذلك قال لعمرى إنه القاضي عالم ثقة، إلا أنني لو فعلت ذلك لافتضحت عند ملوك الإسلام والكفر، لأنني أكون بين أمرين: إما أن تُتصور مملكتي بأنها خالية من كاتب يصلح للوزارة، فيصغر الأمر في نفوسهم، أو أنني عدلت عن الوزراء إلى أصحاب الطيالس، فأنسب إلى سوء الاختيار.

وكانت المناصب أحياناً وراثية، فقد ذكر أن الوزير ابن مقله خلفه ابنه، وهو في الثامنة عشرة، وكذلك تولى أبو الفتح بن العميد الوزارة بعد أبيه، وله من العمر إحدى وعشرون سنة، وقد ولي الوزارة من آل خاقان أربعة وزراء في سبعين عاماً، وكذلك تقلد أربعة من بني

الفرات الوزارة في خمسين سنة، وكان ابن العميد وزيراً لعماد الدولة رأس أسرة بني بويج ومؤسس مملكتهم، وكان ابنه وحفيده وزيرين لركن الدولة. أما بنو وهب، وأصلهم من نصارى العراق، فقد توارث عشرة منهم أرقى مناصب الدولة، وكان أربعة منهم وزراء.

ومما يزيد الأمر خطورة أن أهم عمل للوزير هو إدارة مالية البلاد، فهو الذي يعمل الدخل والخرج، ويفرض الضرائب أو يسقطها، ويحصل الأموال من النواحي.

وجميع الوزراء الذين استعفوا أو عزلوا في القرن الرابع إنما فشلوا أمام الصعوبات المالية. وفي عام (٣٣٤هـ = ٩٦٤م) سمع الوزير أبو الفضل السلمي وهو في داره ليلة جلبة الخيل، وعلم أن غوغاء العسكر قد اجتمعوا يؤلبون ويلقون عليه الذنب في تأخير أرزاقهم، فدعا بالحلاق، فحلق له رأسه، واغتسل بماء ساخن، ولبس الكفن، ولم يزل ليلته يصلي، ثم دخل الجند عليه وقتلوه، وهو ساجد.

وكانت سنة (٣٣٤هـ = ٩٤٦م) أهم سنة في تاريخ الوزراء، ففي هذا الوقت دخل بنو بويه بغداد وقام كاتب الأمير الذي غلب على الأمور مقام الوزير، وبطل رسم الوزارة.

الوزارة عند الفاطميين

أما عند الفاطميين فكان اسم الوزير غير مقبول في أول الأمر، وكان قاضي القضاة أجل أرباب الوظائف عندهم، ولم يتخذ خلفاؤهم وزراء إلا في عهد الخليفة الفاطمي الثاني، العزيز بالله.

ولم تكن مهمة الوزير إذا كان وزيراً لأحد أمراء الأطراف هي بعينها مهمة وزير الخلافة، وقد لقب الوزير الفضل بن سهل، وزير المأمون، من بين وزراء الدولة الأولين بلقب ذي الرياستين، وربما كان ذلك لأنه كان خبيراً بشؤون السيف والقلم. وقد أحدث عضد الدولة في منصب الوزارة أنه اتخذ وزيرين معاً، ولم يكن الوزيران على وفاق، بل كان كل واحد يدبر المكائد لصاحبه.

ولما جاء بهاء الدولة جرى على رسم أبيه فعين وهو بشيراز، وزيرين عام (٣٨٢هـ = ٩٩٢م)، وجعل أحدهما مديراً لأُمور العراق. ولما مات الصاحب ابن عباد سنة (٣٨٤هـ = ٩٩٤م)، بعد أن دبر أمور الوزارة بفارس أحسن تدبير، وقعت مساومة شائنة حول هذا المنصب، وذلك أن أحد الولاة أرسل يخطب الوزارة ويضمن ثمانية آلاف ألف درهم فبذل الوزير الذي كان في الوزارة، إذ ذاك ستة آلاف ألف درهم على إقراره في الوزارة، فأشرك السلطان فخر الدولة بينهما في الوزارة، وسامح كلا منهما بألفي ألف درهم من جملة ما بذل، وجمع بينهما في النظر، ورتب أمرهما على أن يجلسا في دست واحد ويكون التوقيع لهذا يوماً والعلامة للآخر، وكانا يتقارعان على من يخرج لقيادة الجيوش، ثم سعت بينهما السعاة، ودبر أحدهما للآخر فقتله.

وزير الوزراء

وكان عام (٤١١ هـ = ١٠٢٠ م)، أكرم أمير بغداد وزيره، فأمر بأن تضرب الدبادب أمام داره في أوقات الصلاة، وهو ما كان ينفرد به السلطان وحده، وكذلك لقبه بلقب وزير الوزراء.

ثروة الوزراء

ومن الوزراء علي بن الفرات، وهو الذي خلف أخاه العباس في منصب الوزارة عام (٢٩٦ هـ = ٩٠٩ م). وكان علي حين تقلد الوزارة في الخامسة والخمسين من العمر. وكان وزيراً واسع الثروة حتى يقول الصولي: « وما سمعنا بوزير جلس في الوزارة وهو يملك من العين والورق والضياع والأثاث ما يحيط بعشرة آلاف ألف غير ابن الفرات ». وقد ظهر في منصبه بمظهر الفخامة التامة، فكان يجري على خمسة آلاف إنسان ما بين مائة دينار في الشهر إلى خمسة دراهم، وكان يطلق للشعراء في كل سنة من سني وزارته عشرين ألف درهم رسماً لهم، سوى ما يصلهم به متفرقاً، وعند مديحهم إياه، وكان فيمن يدعى إلى طعامه كل يوم تسعة كتاب، هم خاصة كتابه، وكان منهم أربعة نصارى.

مطابخ الوزراء

وكانت ألوان الطعام توضع وترفع على مائدته أكثر من ساعتين، وكان له في داره مطبخان:

١. مطبخ الخاصة، ولا يمكن أن يحصى ما كان يدخله من الحيوان لكثرتة.
٢. ومطبخ العامة، الذي يختص بما يقدم إلى الحجاب المقيمين بالدار ويفرق منه للرجال والبوابين وأصاغر الكتاب وغلمان أصحاب الدواوين، وكان يقدم إلى هذا المطبخ كل يوم تسعون رأساً من الغنم، وثلاثون جدياً، ومائتا قطعة دجاجاً سمناً، وفراريج مصدرة، ومائة قطعة دراجاً،... وهناك خبازون يخبزون الخبز ليلاً ونهاراً، وقوم يعملون الحلواء عملاً متصلاً، ودار كبيرة للشراب، وفيها ماذيان يجعل فيها الماء المبرد، ويسقى منه جميع من يريد الشرب من الرجال والفرسان والأعوان والخبزان، ومن يجري مجراهم من الأتباع والغلمان، وكان بالدار مزملات فيها الماء الشديد البرد. وبرسم خزانة الشراب خدم نظاف عليهم الثياب الديقية

السرية، وفي يد كل واحد منهم قدح فيه سکنجبین أو جلاب ومخوض وكوز ماء، ومنديل من مناديل الشراب نظيف، فلا يتركون أحداً ممن يحضر الدار من القواد والخدم السلطانيين والكتاب والعمال إلا عرضوا ذلك عليه. وكانت داره مدينة بذاتها، حتى كان بها فوجان من الخياطين. وكان في جانب الدار أدراج كثيرة لأصحاب الحوائج والمتظلمين، حتى لا يلتزم أحد منهم مؤونة لما يتاعه من ذلك، ولما خلع على هذا الوزير خلع الوزارة زاد في ذلك اليوم ثمن الشمع قيراطاً في كل من، وزاد سعر القراطيس لكثرة استعماله لهما، ولأنه كان من رسمه ألا يخرج أحد من داره وقت العشاء إلا ومعه شمعة منوية ودرج منصوري.

وقد سقي في داره في ذلك اليوم والليلة أربعون ألف رطل ثلجاً، جرى رسمه مدة وزارته أن يعطي كل من يخرج من داره عند اصفرار الشمس شمعة. وفي عام (٣١١هـ=٩٢٣م)، اتخذ ابن الفرات مارستاناً ببغداد، وكان ينفق عليه مائتي دينار من ماله في كل شهر.

الوزير علي بن عيسى

وكان علي بن عيسى متمسكاً بالوقار، وحاول أن يتدارك العجز في بيت المال بالاقتصاد في الأمور الصغيرة، فأنقص أرزاق العمال والجنود، وأسقط ما كان يفرق على القواد والفرسان في كل عيد، وكان ذلك من شاة إلى عدة بعران، وحاول أن يمنع من امتداد الأيدي إلى الأموال العامة. ولكن ابن الفرات شنع عليه، بقوله: يا أبا الحسن علي بن عيسى! شغلت نفسك بأخلاق المملكة والنظر في علوفة البط والحطيطة من أرزاق الناس، وما يجري هذا المجرى من الصغار المستهجنات، لعمارة بيدر واحد أصلح للسلطان وأعود عليه من توفيرك ما تقرت به إليه. وكان يوفر من الأشياء الصغيرة، ويحكى أنه قضى مرة ساعة يناظر في علوفة البط حتى إن المتولي لكيل العلوفة سأل كاتبه عن رزقه في الشهر، ووجد أنه يتقاضى عن الساعة عشرين ديناراً فقال: «قد نظر الوزير في أكثر من ساعة لتوفير ما لا يبلغ ما استحقه من الرزق».

الوزير أبو علي الخاقاني

وقد ولي أبو علي محمد بن عبد الله الخاقاني الوزارة مدة سنتين، وذلك بين وزارة ابن الفرات وعلي بن عيسى. وكان الخاقاني متخلقاً عامياً وكانت طريقته كثرة التولية والعزل، فكان يعين في المنصب الواحد رجالاً كثيرين واحداً بعد واحد، ولم يكن ذلك عن قلة تقدير للمسئولية، بل ليأخذ من كل منهم رشوة. ويحكى أنه اجتمع في خان واحد بمدينة حلوان (بالعراق) سبعة أنفس، وقد قلد الخاقاني كل واحد منهم مائة الكوفة في عشرين يوماً، واجتمع بالموصل خمسة آخرون قد قلدهم منصباً آخر، وهناك تشاكوا ما بذلوه عن تقليدهم. ويذكر أن الخاقاني قلد عمالة بادورياً في أحد عشر شهراً أحد عشر عاملاً.

الوزير حامد بن عباس

أما حامد بن العباس الذي ولي الوزارة عام (٣٠٦هـ = ٩١٨م)، فقد كان على خلاف غيره من الوزراء ولما ناظر حامد بن العباس ابن الفرات بعد عزله أفحش له في القول، فقال له ابن الفرات: ليس ما أنت فيه بيدراً تقسمه، وأكارا تشتمه وتحلق لحيته وتضربه، وعاملاً تذبح

دابته وتعلق رأسها في عنقه، فإنما هذه الدار دار خليفة. وقد أظهر من الأبهة ما يظهره ذوو المجد الحديث لا المؤثر، فكان له ألف وسبعمائة حاجب وأربعمائة مملوك يحملون السلاح، لكل واحد منهم ممالك، وكان الملاحون في حراقتة من الخصيان البيض، وهم أعلى الخصيان ثمناً. وقد جرى بينه وبين مفلح الأسود كلام مرة، فقال له حامد: لقد هممت أن أشتري مائة خادم أسود وأسميهم مفلحاً وأهبهم لغلماني.

وكان حامد بن العباس لم يتورع من خزن الحبوب في العراق وخورزستان وأصفهان، بعد أن كان قد ضمن هذه البلاد بمال يدفعه للخليفة، حتى ارتفعت الأسعار، وأدى ذلك إلى اضطراب العامة وثورتهم عليه حتى فسخ الضمان.

الوزير ابن مقلة

أما الوزير ابن مقلة، ولد في بغداد عام (٢٧٢هـ = ٨٨٥م) واستطاع أن يجمع كثيراً من المال في سنين قليلة، ووزر لثلاثة خلفاء في أوائل القرن الرابع، وبني لنفسه داراً عظيمة في بقعة من أحسن بقاع مدينة السلام. وكان يعتقد بالنجوم، فجمع المنجمين، حتى اختاروا له وقت البناء فوضع أساس الدار بين المغرب والعشاء، وكان له بستان كبير أنشأه بلا نخل، وعمل له شبكة ابريسم، وكانت تفرخ فيه الطيور التي لا تفرخ إلا في الشجر كالقماري والدباسي والهزار والبيغ والبلابل والطواويس، وكان فيه من الغزال والبقر البدوية والنعام والإبل وحمير الوحش. وكان يحاول أن يجرب التزاوج بين الحيوان، وبشر مرة بأن طائراً بحرياً وقع على طائر بري، فأزوجا وباضاً وأفقساً، فأعطى من بشر بذلك مائة دينار.

وكان ابن مقلة صاحب مؤامرات، جريئاً في ذلك، ويتهمه المؤرخون بالإيقاع بين القاهر (٣٢٢هـ = ٩٣٤م) وجنده، وبأنه شحذ نياتهم، وجمع كلمتهم على قصد القاهر والفتك به. وقد سعى عند بجمك وعند الخليفة الراضي على ابن رائق الذي كان في ذلك الحين قابضاً على زمام الأمور ببغداد، ذلك لأن ابن رائق لما صار إليه تدبير المملكة قبض على ضياع ابن مقلة. ولكن الخليفة احتال حتى قبض عليه وسلمه لابن رائق، وذلك على الرغم من أنه استشار المنجمين في اختيار الوقت للقاء الخليفة. واستقر الأمر على معاقبته بقطع يده اليمنى، ومن نكد الدنيا، كما يقول الثعالبي، أن مثل هذه اليد النفيسة تقطع، لأن خط ابن مقلة كان من أحسن خطوط الدنيا، وهو أكبر مؤسس للكتابة العربية الجديدة التي ظلت

مستعملة طول القرن الرابع الهجري. على أن ابن مقله بدلاً من أن يكتب بيده اليسرى كان يشد القلم على ساعده الأيمن ويكتب، غير أنه، رغم ما حل به، واصل سعاياته ودسائسه غير راجع عن ذلك، فقطع لسانه بعد ثلاث سنين، وبقي في الحبس مدة طويلة، حتى مات. وقد وصف المؤرخون حال هذا الرجل في آخر أيامه، بعد القوة وحياة الأبهة، فيقال إنه كان لا يجد من يخدمه، حتى كان يستقي الماء بنفسه من البئر، فيجذب حبل الدلو بيده اليسرى ثم يمسكه بفيه.

الوزير ابن العباس الخصيبي

ومن وزراء القرن أبو العباس الخصيبي، وكان يواصل شرب النيذ بالليل والنوم في أيام وزارته كلها، وكان ينتبه مخموراً لا فضل فيه للعمل، فيترك فض الكتب الواردة من عمال الخراج وقراءتها والتوقيع عليها وإخراجها، إلى الدواوين. وكانت تعمل له جوامع مختصرة لما يرد من الكتب المهمة، فتعرض عليه إذا انتبه، فربما قرأها، وربما لم يقرأها. فيقرأها أبو الفرج إسرائيل النصراني، ويوقع فيها بحسب ما يرى. وكان الخصيبي مشغولاً بالشراب واللعب، ولا يحسن شيئاً غير المصادرات.

الوزير الصاحب ابن عباد

وكان أشهر الوزراء أواخر القرن الرابع ابن عباد الملقب بالصاحب الذي ولد عام (٣٢٦هـ) وتوفي عام (٣٨٥هـ = ٩٣٨ . ٩٩٥م)، وزير بني بويه بالري. وكان في بدء أمره معلماً في قرية، ثم ترقى به الحال، بعد أن كان من صغار الكتاب، إلى أن بلغ منصب الوزير المدبر لأمر الملك، وكان الأمير الشاب الذي استوزره والذي أنشأ له ابن عباد مملكته لا يخالفه في أمر من الأمور، بل حكمه في كل شيء، وكان يجله بكل ضروب الإجل، ولما مات الصاحب عمل له ما يعمل للملوك، فحضر جنازته مخدومه فخر الدولة وجميع أعيان المملكة، وقد غيروا لباسهم، فلما خرج نعشه صاح الناس صيحة واحدة، وقبلوا الأرض لنعشه، ومشى فخر الدولة أمامه، وقعد للعزاء أياماً.

وكان ابن عباد من الأدباء ومن المعنيين بأهل الأدب. وكان الصاحب يعجبه الخز خاصة وكان يكثر من إهدائه، فنظر أبو القاسم الزعفراني الشاعر يوماً إلى من في دار الصاحب من الخدم والحاشية، فوجد عليهم الخروز الفاخرة الملونة، فكتب قصيدة يطلب فيها كسوة من

الخنز قال فيها:

وحاشية الدار يمشون في

ضروب من الخنز إلا أنا

فقال الصاحب. قرأت في أخبار معن بن زائدة أن رجلاً قال له: احملي أيها الأمير! فأمر له بناقة وفرس وبغلة وحمار وجارية، ثم قال: لو علمت أن الله تعالى خلق مركوباً غير هذا لحملتك عليه، وقد أمرنا لك من الخنز بجبة وقميص ودراعة وسراويل وعمامة ومنديل ومطرف ورداء وجورب، ولو علمنا لباساً آخر يتخذ من الخنز لأعطيناكه.

المسائل المالية

ولم تكن في الدولة الإسلامية كلها ضرائب ثابتة ونافذة على نحو واحد إلا الضرائب الإسلامية الخالصة وهي: ضريبة رؤوس أهل الذمة من اليهود والنصارى، والزكاة المفروضة على المسلمين^{٢٠}. وكانت هذه تحسب على أساس الشهور، شأنها شأن أجور الأجراء والمستغلات والأرض المقطعة وسائر ما يجري على المشاهرات. وكانت هذه الضرائب الشهرية تجري بحسب السنة الهلالية، وكان التقويم الهلالي يعمل به في الواقع في المدن الكبيرة التي يقل اعتمادها على الزراعة؟ أما في الأرض الزراعية فلم يكن بد من أن يتمشى نظام الضرائب مع حال الزرع وأوقات الغرس والحصاد، أي أنه لم يكن بد من السير طبقاً للسنة الشمسية. ومما احتص به نظام المسلمين الإداري فيما يتعلق بالمال أن دواوين الخراج في الولايات كانت تقوم مقام خزائن للدولة، فكانت تستوفى من مال الخراج النفقات الراتبية وأعطيات الجند، ثم يحمل ما يتبقى إلى بيت المال العام بمدينة السلام^{٢١}؛ ولذلك فإن خزنة بغداد كانت لا تعنى إلا بدار الخلافة وحاجاتها وبشؤون الدواوين وبالجزء الشرقي من بغداد، لأنه كان بحسب رسم خاص تابعاً لدار الخلافة؛ أما الجانب الغربي، وهو بغداد الحقيقية، فكان جزءاً من عمالة بادوريا.

وكانت سيطرة العملة، وهي السيطرة التي من شأنها القضاء على سائر القيم الأخرى المتدرجة، وجعل قيمة الأشياء متوقفة على قيمتها النقدية، سبباً في زوال كثير من الضرائب. وقد جرت العادة حوالي عام (٣٠٠هـ = ٩١٢م) أن ترسل مع الخراج أو الهدية أشياء طريفة غريبة عن المؤلف؛ ففي عام (٢٩٩هـ = ٩١١م) أرسل مع مال مصر تيس له ضرع يجلب اللبن، وفي سنة (٣٠١هـ = ٩١٣م) وصلت هدايا صاحب عمان إلى السلطان، وفيها

^{٢٠} - بالإضافة إلى الخمس والخراج (م).

^{٢١} - وكانت العادة إن الخلفاء « إذا جاءهم جبايات الأمصار والآفاق يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجنادها، فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذي لا إله إلا هو ما فيها دينار ولا درهم إلا أخذ بحقه، وأنه فضل عن أعطيات أهل البلد من المقاتلة والذرية، بعد أن أخذ كل ذي حق حقه».

ببغة بيضاء وغزال أسود، وفي سنة (٣٠٥هـ) وردت من عمان أيضاً هدايا جلييلة، فيها طائر أسود يتكلم بالفارسية والهندية أفصح من البغاء وفيها ظباء سود.

وكان يحدث أن يرغب صغار أرباب الضياع في الإفلات من عبء الخراج العادي، فاعتادوا أن يلجئوا ضياعهم إلى الكبراء الأقبياء، فكانت تجرى بأسمائهم، ويخفف عن أهلها الخراج، فيدفعون العشر فقط، كما هو الحال في الإقطاعات؛ ولكنها تبقى في أيدي أهلها يتبايعونها ويتوارثونها، وإن كانت بأسماء من ألقبها إليهم. وهذه التلجئة نظام قديم، وقد أوجدها في مصر على عهد الرومان البوزنطيين كبار أصحاب الضياع، ويحكى أنها كانت موجودة في عهد الأمويين، ثم صارت اصطلاحاً قائماً بذاته بين مواضع الكتاب في دواوين الخراج بخراسان، وأصبح لها قسم خاص بها في القرن الرابع الهجري، وكانت شائعة في فارس بنوع خاص لنقل الخراج فيها.

ومن وجوه الأموال التي ترد إلى بيت المال أخماس المعادن والركاز، والمال الدفون من دفائن الجاهلية، وخمس سيب البحر مما يقذف به ويستخرج منه، مثل العنبر والحلية، ومنها أثمان الأبق من العبيد، وما يؤخذ من اللصوص من الأموال والأمتعة، إذا لم يأت لذلك طالب يستحقه، ومنها ما يؤخذ من موارث من يموت ولا يخلف وارثاً له. وكان لا يؤخذ لبيت المال إلا من ميراث المسلمين.

ديوان الموارث !

وفي القرن الثالث الهجري أنشئ ديوان خاص يسمى ديوان الموارث، وذلك في عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦ . ٢٧٩هـ = ٨٦٠ . ٨٩٢م). وكان هذا الديوان مجالاً واسعاً لظلم الناس والإعنات في موارثهم وأخذ ما لم تجر به السنة. يقول ابن المعتز قرب أواخر القرن الثالث يشكو ما يجري على أصحاب الموارث:

وويل من مات أبوه موسراً	أليس هذا محكما مشهراً
وطال في دار البلاء سجنه	وقيل من يدري بأنك ابنه
فقال: جيرانى ومن يعرفنى	فتفتوا سباله حتى فنى
وأسرفوا في لكمه ودفعه	وانطلقت أكفهم في صفعه
ولم يزل في أضيق الحبوس	حتى إذا رمى لهم بالكيس

وكان كثير من الحكام يحاولون أن يعتبروا التركة من غير وارث، ليستولوا عليها.
وكان من محاسن أعمال عميد الجيوش حاكم بغداد المتوفى عام (١٠١٠هـ=١٠١٠م) أنه
حمل إليه مرة مال كثير قد خلفه بعض التجار المصريين، وقيل له: ليس للميت وارث، فقال:
لا يدخل خزانة السلطان ما ليس لها؛ يترك إلى أن يصح خبره؛ فلما كان بعد مدة جاء أخ
للميت بكتاب من مصر بأنه مستحق للتركة، فقصد باب عميد الجيوش وأوصل إليه
الكتاب، فقضى حاجته. ولما وصل التاجر إلى مصر أظهر الدعاء له، فضج الناس بالدعاء له
والثناء عليه، وبلغ عميد الجيوش الخبر فسر به.

من جور الحكام

وكثيراً ما كان يؤخذ جزء من مال الأغنياء في حياتهم، وقد نشأ هذا الرسم من أن بعض العمال كانوا يستولون على الأموال بغير حق، ثم يضطرون إلى إرجاعها، وهذا شبيه بما فعله نابليون الأول حين ألزم قواده من ذوي اليسار العظيم أن يدفعوا للخزانة مبالغ كبيرة. على أن جميع التجار الذين كانت تبتز أموالهم كانت لهم معاملات مع الدولة أصابوا منها مالاً وفيراً، أو على الأقل ظن بهم ذلك. يقول ابن المعتز في وصفه لجور الحكومة في عهد المعتمد.

وتاجر ذي جوهر ومال كان من الله بحسن حال
قيل له: عندك للسلطان ودائع غالية الأثمان
فقال: لا والله ما عندي له صغيرة من ذا ولا جليلة
وإنما ربحت في التجارة ولم أكن في المال ذا خسارة
فدخنوه بدخان التبن وأوقدوه بثقال اللبـن
حتى إذا مل الحياة وضجر وقال: ليت المال جمعاً في سقر
أعطاهموا ما طلبوا، فأطلقا يستعمل المشي ويمشي العنقا

ولما اعتقل ابن العميد عام (٣٦٦هـ = ٩٧٦م) وأيقن أن القوم قاتلوه وأنه لا ينجو منهم، وإن بذل ماله، أخرج من جيبه رقعة فيها ثبت ما لا يحصى من ودائعه وكنوز أبيه وذخائره، فألقاها في كانون نار بين يديه، وقال للموكل به: إصنع ما أنت صانع، فوالله لا يصل من أموالي المستورة إلى صاحبك دينار واحد؛ فما زال يعرضه على العذاب إلى أن تلف من غير أن يخبرهم بشيء.

ولما صح عند الخليفة المتقي قتل بجكم ركب المتقي إلى داره، وحفر أماكن فيها، فحصل له من مال بجكم ما يزيد على ألف عيناً وورقاً، ثم أمر بغسل التراب، فأخرج منه ستة وثلاثون ألف درهم. ولكن بجكم كان قد دفن أمواله في الصحراء، ولم يقتصر على ما دفنه في البيوت؛ فكان الناس يتحدثون بأنه يقتل من يعاونه في ذلك، لئلا يدل عليه في وقت آخر، وبلغ بجكم ما يقوله الناس، فأنكر ذلك، وحكى لسان بن ثابت ما كان يفعله إذا أراد دفن مال في الصحراء: كان يحضر إلى داره بغالاً عليها صناديق فارغة، فيجعل المال في بعضها، ويدخل من يريد أن يكون معه من المساعدين في البعض الآخر، ويطبق عليهم؛ ثم

يأخذ مقود قطار البغال بنفسه، ويسير إلى حيث يريد، ثم يفتح عن الرجال، فيحفرون، ويدفن المال؛ وبعد ذلك يرد الرجال إلى الصناديق ويطبقها عليهم ويعود، فلا يدري الرجال إلى أين ذهبوا من أرض الله ولا من أين أتوا، وكان هو يجعل لنفسه علامات يهتدي بها؛ وبهذه الطريقة استغنى عن القتل، وأقسم لثابت أنه لم يقتل أحداً من أجل دفن المال، وأن ذلك من تشنيع الناس.

وكان أحد الأغنياء إذا مات جر موته النكبة لأهله ولكل من يتصل به من الكتاب والجهابذة والأصدقاء؛ فكانوا يهربون ويستترون ويمتنعون من تسليم الوصية للحكومة، حتى لا تهتدي إلى مكان التركة ووجوهها؛ وقد حدث مثل هذا عند وفاة أحد العلويين إلى أن تقرر أمر التركة أخيراً على خمسين ألف دينار تحمل إلى الخزانة صلحاً على التركة.

لا جمارك في الإسلام

والرسوم الجمركية غير جائزة في الشريعة الإسلامية، إذا دققنا النظر في أحكامها. ورغم هذا فإن مراصد المكوس كانت منتشرة في كل مكان. وقد حاول الفقهاء أن يجلوا هذه المسألة بأن اعتبروا الضرائب الجمركية داخلة ضمن الزكاة، وهذا بالنسبة للمسلمين على الأقل؛ ومن هذا نشأت فكرة أن التاجر يستطيع أن يطوف عاماً كاملاً أينما شاء من حدود البلاد معفى من المكوس متى دفع المكس مرة واحدة، وهو العشر، وأنه لا بد له أيضاً أن يدفع ضريبة ما معه من عين المال على معدل ربع العشر.

وكانت التعريفات الجمركية في الواقع مختلفة، فكان يؤخذ في جدة عن كل حمل من الحنطة نصف دينار وكيل من فرد الزاملة، وعلى سفظ ثياب الشطوي ثلاثة دنانير، وعلى سفظ الديقي ديناران، وعن حمل الصوف ديناران، وكان يؤخذ بالقلزم (السويس) عن كل حمل درهم؛ وكانت تفرض رسوم في المواقيت الأخرى. ولكن المكوس كانت أقل مما تقدم، وكانت الضرائب تؤخذ بالإسكندرية على المراكب الآتية من الغرب وبالفرما على مراكب الشام. وكان لصغار ملوك العرب على اختلافهم مراصد برية تدفع إليها الضرائب على تفاوت في القيمة؛ فكان بعضهم يأخذ نصف دينار عن كل حمل، وأكثرهم كان لا يأخذ عن الحمل إلا درهماً.

أما العراق فكانت كثيرة المراصد في البر والبحر والنهر؛ وكانت البصرة مشهورة بتفتيش صعب وشوكات منكرة. وفي عهد المقدسي كان على باب البصرة عند حدود مملكة الخليفة من حدود بلاد القرامطة ديوان للقرامطة وديوان آخر للديلم، حتى لقد كان يؤخذ على الغنمة الواحدة أربعة دراهم (أي ضعف ثمنها). وكان الديوان لا يفتح إلا ساعة من النهار. وكان يؤخذ من كل حمل دخل اليهودية، وهي القسم التجاري في أصفهان، ثلاثون درهماً. وكان الخراج في طوران يؤخذ عن الحمل ستة دراهم إذا دخل وكذلك إذا خرج، ومن الرقيق اثنا عشر إذا دخل حسب، وإن كان من نحو الهند فعشرون من الحمل، وإن كان من قبل السند فعلى حسب القيم.

الدول ملك المسلمين

ولما كان من الأمور المقررة أن الدولة الإسلامية ملك للمسلمين، فقد قضى منذ أول عهد الإسلام بالفصل بين بيت المال العام وبين خزانة الخليفة، وهي المسماة بيت مال الخاصة؛ ولكن لما كان الذي يتولى الإنفاق من هاتين الخزانتين رجالاً واحداً لا يقدم حساباً لأحد، فقد كان انفصالهما مسألة تتعلق بضميره.

وفي عام (٣١٩هـ = ٩٣١م) عرض الوزير على المقتدر ما كان من العجز وهو سبعمائة ألف دينار، وقال له: ليس لي معول إلا على ما يطلقه أمير المؤمنين لأنفقه، فعظم ذلك على المقتدر، وكتب أحد المطلعين للوزارة إليه رقعة يضمن فيها القيام بجميع النفقات من غير أن يطلب منه شيئاً، وأن يستخرج سوى ذلك ألف ألف دينار تذهب إلى بيت مال الخاصة، فقلده الخليفة الوزارة، ولكنه عزل في العام التالي، ووجد أنه احتال بأن أضاف إلى ما يقدر حصوله من النواحي أموال نواح قد خرجت عن يد السلطان بتغلب من تغلب عليها، وأسقط من النفقات زيادات الجند والحاشية.

نفقات موسم الحج و...

وكان يجب على الخليفة بحكم أنه الرئيس الروحي للمسلمين أن يقوم بنفقات موسم الحج، وبنفقات الغزوات الصائفة، وفداء أسرى المسلمين، والقيام بنفقات الرسل الواردين، وذلك من بيت مال الخاصة. أما العطايا وكل ما يتعلق بنفقات دار الخلافة، فكان يؤخذ من بيت المال العام.

أموال بيت المال

وعندنا بيان يرجع إلى أول القرن الرابع مشتمل على وجوه الأموال التي تحمل إلى بيت مال الخاصة.

- ١ . الأموال المخلفة التي يتركها الآباء لأبنائهم في بيت المال. ويقال إن الرشيد خلف أكبر مقدار من المال، وهو ثمانية وأربعون ألف ألف دينار.
- ٢ . مال الخراج والضياح العامة الذي يرتفع من أعمال فارس وكرمان بعد إسقاط النفقات؛ وبلغ مقدار ذلك في كل سنة منذ عام (٢٩٩هـ إلى ٣٢٠هـ = ٩١١ . ٩٣٢م) ثلاثة وعشرين ألف ألف درهم، منها أربعة آلاف ألف درهم كانت تحمل إلى بيت مال

العامّة، والباقي، وهو تسعة عشر ألف ألف درهم، إلى بيت مال الخاصّة.
٣ . أموال مصر والشام، وكانت جزية أهل الذمة مثلاً تحمل إلى بيت مال الخليفة باعتبارها أمير المؤمنين، لا إلى بيت مال العامّة؛ وهذا يجب للخليفة نظرياً.
٤ . المال الذي يؤخذ من المصادرة لأموال الوزراء المعزولين والكتاب والعمال وما يحصل من ارتفاع ضيعاتهم، والمال الذي يؤخذ من التركات.
٥ . ما كان يحمل إلى بيت مال الخاصّة من أموال الضياع والخراج بالسواد والأهواز والمشرق والمغرب.

٦ . ما كان يستفضله الخلفاء، فكان كل من الخليفين الأخيرين في القرن الثالث الهجري (وهما المعتضد والمكتفي) يستفضل في السنة ألف ألف دينار، وكان سبيل المقتدر أن يستفضل مثلها فيكون مبلغه في خمس وعشرين سنة خمسة وعشرين ألف دينار أعني نحواً من نصف ما خلفه الرشيد. ولكن المقتدر أتلّف كل هذه الأموال الطائلة.

الضرائب غير الشرعية

وكان فقهاء المسلمين يعتبرون كل ما زاد عن الضرائب الشرعية (وهي عشر الأرض والزكاة وجزية أهل الذمة)^{٢٢} ضرائب غير قانونية.
ولما عزم صمصام الدولة ببغداد في عام (٣٧٥هـ = ٩٨٥م) أن يضع على الثياب الإبريسم والقطن المبيعة ضريبة مقدارها عشر الثمن اجتمع الناس في جامع المنصور، وعزموا على قطع الصلاة، وكاد البلد يفتن، فاعفوا من ذلك.
وفي عام (٣٨٩هـ = ٩٩٨م) أريد مرة أخرى وضع العشر على ما يعمل من الثياب الأبريسميات والقطنيات بمدينة السلام، فثار الناس وقصدوا المسجد الجامع بالمدينة ومنعوا الخطبة والصلاة، وأحرقوا دار الحموي، فلم يبق فيها جدار قائم، واحترق ما كان فيها من حسابات الدواوين؛ وقبض على جماعة من العامّة اتهموا بما جرى وعوقبوا.
ولم يقتصر أمر الضرائب على أدوات الترف، بل تعداها إلى الضروريات، ففرضت ضريبة على الملح. وفي سنة (٤٢٥هـ = ١٠٣٣م) خاطب الدينوري الزاهد الملك في إزالة ضرائب

^{٢٢} - ويضاف إليها الخمس (م).

الملح، وأعلمه ما يصيب الناس من الأذى بذلك فأجاب الملك طلبه، وكتب برفع هذه الضرائب منشوراً قريء في الجوامع، وكتب على أبوابها بلعن من يتعرض لإعادة هذه الجبابة، وكان ارتفاعها ألفي دينار في كل سنة.

وكان بيت المال في كل من هذين القطرين وهما الشام ومصر يقوم بالمسجد الجامع، وهو شبه قبة مرتفعة محمولة على أساطين؛ وبيت المال باب حديد وأقفال، والصعود إليه على قنطرة من الخشب، وإذا صليت العشاء الآخرة أخرج الناس كلهم من المسجد، حتى لا يبقى فيه أحد، ثم أغلقت أبوابه، وذلك لوجود بيت المال فيه.

وقد ارتفعت الجبابة في فارس في عهد عضد الدولة، أعظم حكام القرن الرابع، من ١،٨٨٧،٥٠٠ إلى ٢،١٥٠،٠٠٠، وذلك في عام (٣٠٦هـ = ٩١٨م). أي أن زيادة الدخل كانت تقرب من السدس. وقد كان في استطاعة عضد الدولة أن ينفق عن سعة لأن دخله في السنة كان ثلاثمائة وخمسة وعشرين ألف ألف درهم.

وكان أمراء الأطراف في معظم الأحوال يظهر أمرهم بأن يكونوا ضامنين للبلاد التي يحكمونها، ولم يظهروا في صورة أصحاب الإقطاعات كما كان الحال في الإمبراطورية الجرمانية المقدسة، وكانوا يتوصلون إلى الملك بأن يتدثروا باحتلال المدن والأقاليم غصباً؛ ثم يقاتلون عليها عسكر الخليفة، حتى يعترف لهم بالإمارة في مقابل مال يضمنون أداءه، وكانت أمثال هذه الضمانات التي تؤخذ كرهاً تؤتى الحكومة صفقة سيئة بالنسبة للضمانات الأخرى. وفي سنة (٢٩٦هـ = ٩٠٩م) ضمن ابن أبي الساج أرمينية وأذربيجان قبل أن تؤولا إلى السامانيين بمائة وعشرين ألف دينار، وهو ما يقرب من عشر الدخل الذي كانت تدفعه هذه البلاد منذ مائة سنة. وفي سنة (٣٢٢هـ = ٩٣٤م) فتح عماد الدولة بن بويه إقليم فارس، وطلبها ضماناً من الخليفة، على أن يدفع إليه ألف ألف درهم، على حين أنها كانت تؤتي من مال الخراج والضياع وحده منذ عام (٢٢٩هـ = ٩١١م) إلى ما بعد ذلك بعشرين عاماً ثمانية عشر ألف ألف درهم. وكذلك كان ضمان عمان في أوائل القرن الرابع ثمانين ألف دينار. وكان خراجها تحت الإدارة المباشرة قبل ذلك بمائة عام ثلاثمائة ألف دينار.

من سياسة المستبدين

وكان استعمال الوسائل القاسية في تحصيل الخراج من الوسائل المعروفة قديماً^{٢٣}.
وديونيسيوس يصف جباة الخراج في العراق حوالي عام (٢٠٠ هـ = ٨١٥ م) بأنهم قوم من
العراق والبصرة والعاقولا، وهم عتاة ليس في قلوبهم رحمة ولا إيمان، شر من الأفاعي، يضربون
الناس ويحبسونهم، ويعلقون الرجل البدين من ذراع واحد حتى يكاد يموت.
وفي أواخر القرن الثالث وصف الأمير عبد الله بن المعتز الإدارة في عهد الوزير ابن بلبل،
كيف كانت تجبي أموال الخراج من غير رحمة:

فكم وكم من رجل نبيل ذي هيئة ومركب جليل
رأيته يعتل بالأعوان إلى الجوس وإلى الديوان
حتى أقيم في جحيم الهاجره ورأسه كمثل قدر فائره
وجعلوا في يده حبالا من قنب يقطع الأوصالا
وعلقوه في عرى الجدار كأنه برادة في الدار
وصفقوا قفاه صفق الطبل نصباً بعين شامت وخل
إذا استغاث من سكير الشمس أجابه مستخرج برفس
وصب سجان عليه الزيتا وصار بعد بزة كميता
حتى إذا طال عليه الجهد ولم يمن مما أراد بد
قال ائذنوا لي اسأل التجارا قرضاً وإلا بعثهم عقاراً
وأجلوني خمسة أياماً وطوقوني منكمو إنعاماً
فضايقوا وجعلوها أربعة ولم يؤمل في الكلام منفعه
وجاءه المعينون الفجرة وأقرضوه واحداً بعشره
وكتبوا صكاً بيع الضيعة وحلفوه بيمين البيعة
ثم تآدى ما عليه وخرج ولم يكن يطمع في قرب الفرج
وجاءه الأعوان يسألونه كأنهم كانوا يدللوننه
وإن تلكاً أخذوا عماتنه وجمشوا أخدعه وهامته

^{٢٣} - لكن أبطله الإسلام كما في سيرة الرسول (صلى الله عليه وآله) وعلي t لكن رد العنف الأمويون والعباسيون
والعثمانيون(م).

فالآن زال كل ذاك أجمع وأصبح الجور بعدل يقمع
وكان التعذيب أشد مما كان استرداداً لأموال الدولة، وأخص ما كان يستعمل في ذلك القيود الحديدية الثقيلة في الأرجل، والضرب المتلف، والتعليق من اليد الواحدة، وقد عذب الخليفة القاهر أم المقتدر أخيه وسلفه على عرش الخلافة، فضربها، وعلقها برجلها لتخرج مالها، وتحل أوقافها، وتوكل في بيعها، فامتنت، ووكلت في بيع أملاكها دون أو قافها، ولكن القاهر أرغمها على ما أراد، وكتب إقراراً منها بذلك، وأحضر القضاة للشهادة على توكيلها، واستلزمت الشهادة أن يروها رأي العين. وقد تحدث القاضيان اللذان رأياها بهذه القصة فقالا:

ولما رأيناها رأينا عجوزاً رقيقة الحال سمراء اللون إلى البياض والصفرة، وعليها أثر ضرب شديد، فما انتفعنا بأنفسنا ذلك اليوم، فكراً في تقلب الزمان، وتصرف الحدثان.
ثم عذب آخرون بأن غرزت في أظافرهم أطراف القصب، أو بالضرب على رؤوسهم بالدبابيس، وقد وصف شاهد عيان كيف جيء بأحد المصادر من محبسه يرسف في قيوده، وعليه جبة دنسة وشعره طويل... وجعل يشكو ما أصابه من المكاره، وفرائصه تُرعد.
وربما أمعن المطالبون في التعذيب فألبسوا فريستهم جبة صوف مدهونة بالنفط أو بماء الأكارع.

وفي سنة (٣٢٥ هـ = ٩٣٦ م) دخل بحكم التركي وأصحابه العراق، فاعتقل الناس، واشتد في مطالبتهم بالمال وعذبهم، فكان يضع على بطونهم أطسات الجمر، حتى قال له رجل أراد أن يسير ما في نفسه من طلب العراق: أيها الأمير أنت مطالب بملك، ومرشح نفسك لخدمة الخلافة، ألا تعلم أن هذا إذا سمع به أوحش منك؟ وقد حملت نفسك في أمرنا على مثل ما كان يعمل مرداويج بأهل الجبل، وهذه بغداد ودار الخلافة لا الري وأصبهان، ولا تحمل هذه الأخلاق.

وحدث أبو الحسن علي بن الحسين بن عبد الأعلى قال: كنت بحضرة أبي الحسن ابن الفرات في وزارته الأولى (٢٩٦. ٢٩٩ هـ = ٩٠٨. ٩١١ م)، وهو جالس يعمل، إذ رفع رأسه، وترك العمل من يده، وقال: أريد رجلاً لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر يطيعني حق الطاعة، فأنفذه في مهم لي، فإذا بلغ فيه ما أرسمه له أحسنت إليه إحساناً يظهر عليه وأغنيته؟ فأمسك من حضر، ووثب رجل يكنى بأبي منصور، أخ لابن أبي شبيب حاجب ابن الفرات،

فقال: أنا أيها الوزير، قال: وتفعل؟ قال: أفعل وأزيد، قال: كم ترتزق؟ قال: أرتزق مائة وعشرين ديناراً. قال: وقعوا له بالضعف، وقال: سل حوائجك، فسأله أشياء أجابه إليها، فلما فرغ من ذلك قال: خذ توقيعي وامض إلى ديوان الخراج وأوصله إلى كاتب الجماعة، وطالبهما بإخراج ما على محمد بن جعفر بن الحجاج، وطالبه بأداء المال، وأتلفه إلى أن تستخرج جميعه، ولا تسمع له حجة ولا تمهله ألبته.

فخرج وأخذ من رجالة الباب ثلاثين رجلاً، فقلت (الحاكي) لأخرجن وأمضين إلى الديوان حتى أنظر ما يؤول إليه الحال؛ فخرجت وصرت إلى الديوان ... فدخل أبو منصور هذا إلى الصقر بن محمد وعبيد الله بن محمد الكلوزاني، وهما صاحبا المجلس شركة، فلم يجد الكلوزاني ووجد الصقر بن محمد، فأوصل إليه التوقيع، وقال له أخرج ما على ابن الحجاج، فقال: عليه من باب واحد ألف ألف درهم، فطالبه بذلك إلى أن نفرغ من العمل بسائر ما يلزمه. وكان محمد بن جعفر من عمال أبي الحسن علي بن عيسى، قال: فأحضر ابن الحجاج، وشتمه، وافترى عليه، وابن الحجاج يستعطفه، ويخضع له، ثم أمر بتجريدته وإيقاع المكروه به، فأوقع، وهو في ذلك كله يقول: يكفي، الله؛ ثم أمر أبو منصور بنصب دقل، فنُصب، وجعل في رأسه بكرة فيها حبل وشدت فيه يد ابن الحجاج، ورفع إلى أعلى الدقل، وهو يستغيث ويقول: يكفي، الله. فما زال معلقاً، وأبو منصور يقول له: المال المال، وهو يسأله حظه وإنظاره إلى أن يوافق الكتاب على ما أخرج عليه، وهو لا يسمع منه، وقد قعد تحت الدقل واختلط، وغضب من غير غضب، اعتماداً لأن يبلغ ابن الفرات فعله، فلما ضجر قال لمن يمسك الحبال: أرسلوا ابن الفاعلة (وعنده أنهم يتوقفون ولا يفعلون)، فأرسلوه لما رأوه عليه من الحدة والغضب، ووافى ابن الحجاج إلى الأرض، وكان بديناً سميناً، فوقع على عنق ابن منصور فدقها، وخرّ على وجهه، وسقط ابن الحجاج مغشياً عليه، فحُمّل أبو منصور إلى منزله في محمل فمات في الطريق، ورُدَّ ابن الحجاج إلى محبسه، وقد تخلص من التلف، وعجب من حضر مما رأى. وكتب صاحب الخبر بالصورة إلى ابن الفرات، فورد عليه منها أعظم مورد، وبكرت عرفان زوجة ابن الحجاج إلى موسى بن خلف حتى أوصلها إلى ابن الفرات، فقررت أمره على مائة ألف دينار سلّمت ببعضها جعدة وقراها من طسوج كوئي، ونجم الباقي، وأطلق ابن الحجاج، وكان الناس يعجبون من قول ابن الفرات: (أريد

رجلاً لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر يطيعني)، ولم تُبَسَطْ على الناس أصناف العذاب والمكارة حتى كانوا يموتون تحتها أقبح موت.

رسوم دار الخلافة

كان اللون الذي اتخذته الخلفاء في القرن الرابع الهجري شعاراً لهم السواد والبياض؛ فلما ركب الخليفة المقتدر في عام (٣٢٠هـ = ٩٣٢م) لقتال مؤنس، وهي الركبة التي قُتل فيها وأشفق من عاقبتها إشفافاً كبيراً، خرج من داره في أكمل لباس وموكب، فكان عليه خفتان ديباج فضي وعمامة سوداء، وعلى كتفيه وصدرة وظهره البردة النبوية، وهو متقلد بذي الفقار سيف الرسول (صلى الله عليه وآله)، وحمائله أدم أحمر، وفي يده اليمنى الخاتم والقضيب؛ وسار بين يديه ولي عهده ابنه أبو أحمد عبد الواحد، وعليه خفتان ديباج وعمامة بيضاء. وكانت عادة خلفاء العباسيين في القرن الثالث والرابع أن يلبسوا قنسوة محددة وقباء، وكلاهما أسود، وكان هذا هو لباس وجوه رعيتهم أيضاً، وكان السواد هو كذلك لون الخرقاة التي كانت تحضر فيها الصدقة كل يوم صلاة الصبح لتفريقها على المحتاجين. وكذلك كان علم الخلافة أسود، عليه بالكتابة البيضاء: محمد رسول الله (صلى الله عليه وآله).

أما خلفاء الفاطميين بمصر فكان لباسهم البياض، وهو شعار العلويين؛ وكانت ألويتهم بيضاء، وعليها أحياناً أهلة من ذهب، في كل منها صورة سبع من الديباج الأحمر؛ وقد شبهها أحد الشعراء بشقائق النعمان.

وكانت طريقة تتويج الخليفة أن يعقد لواء نفسه على الرسم المعروف في ذلك، وأن يتسلم خاتم الخلافة ممن يكون ذلك معه. وهذا تتويج على الطريقة العربية البسيطة.

لباس الحاشية

وكان لباس الحاشية الرسمي في القرن الثالث الهجري أحمر اللون في العادة؛ فيحكى أن المتوكل شرب يوماً في أحد قصوره، وأمر بضرب دراهم؛ وصبغ منها الأحمر والأصفر، ثم أمر الحاشية أن يعد كل واحد منهم قباءً جديداً وقلنسوة على خلاف لون الآخر وقلنسوته؛ ثم أمر بنشر الدراهم كما ينثر الورد، وحوله الندماء والخدم وقوف.

أما في القرن الرابع فكان الغلمان عند ساعات الاستقبال بعضهم بسواد وبعضهم ببياض.

وكان يحمل على رأس خلفاء العباسيين والفاطميين شمسة الخلافة، وتسمى في مصر مظلة.

وكان من علامات سيادة الخليفة ببغداد أن يضرب على باب داره بالطبول والدبادب والأبواق في أوقات الصلوات الخمس.

اللقاب الخلفاء

وظل لقب الخليفة بسيطاً كبساطة لباسه، وهو اللقب المشهور: أمير المؤمنين؛ على أنه منذ أيام الخليفة العباسي الثاني صار الخليفة يسمى باسم فيه نسبة إلى الله؛ وكان اتخاذ هذا اللقب أول عمل يقوم به بعد البيعة له.

وكان كاتب الخليفة القادر (٣٨١ - ٤٢٢ هـ = ٩٩١ - ١٠٣١ م) أول من أخرج في ذكر الخليفة وصفه بالحضرة المقدسة النبوية، اختراعاً جعله قرية فصار سنة.

وكان الأمراء وكبار أصحاب المناصب والعمال يتهاكون جميعاً على الألقاب تهاكماً شديداً، وكانوا جميعاً يلقبون بألقاب منسوبة إلى الدولة مثل ولي الدولة، وعماد الدولة، ومعين الدولة، وعز الدولة، ونحو ذلك.

ثم ظهرت ألقاب كاذبة فيها معارضة لروح الإسلام وتجرؤ على مقام الألوهية، مثل: الأوحده، وكافي الكفاة، وأوحده الكفاة، وجاوز نفر هذا الحد، فسموا أنفسهم بأمير العالم وسيد الأمراء.

وفي سنة (٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م) زيد في ألقاب جلال الدولة شاهنشاه الأعظم ملك

الملك، وهو اللقب الوثني القديم؛ فنفر العامة من ذلك، ورموا الخطباء الذين ذكروه في المساجد بالآجر، ووقعت فتنة؛ ومع أن الفقهاء أفتوا بأن هذه الأسماء إنما يعتبر فيها القصد والنية، وأن ملك الملوك معناه ملك ملوك الأرض، وليس فيه ما يوجب النكير ولا المماثلة بين المخلوق والخالق، وأن هذا اللقب جائز كما جاز أن يقال: كافي الكفاة، وقاضي القضاة، فإن كثيرين من أهل الجدل والتدقيق لم يرضوا به، وذكروا أن القاضي الماوردي منع من جوازه، حتى أدى ذلك إلى أن انقطع عن خدمة جلال الدولة بعد أن كان مختصاً به. ولم يرض هلال الصابي عن تلقيب القادر بالله ابنه وولي عهده بالغالب بالله في عام (٣٩١هـ=١٠٠١م)؛ وهو يذكر بعد حكايته لهذا تلك العبارة المعروفة التي كانت مكتوبة على قصر الحمراء: (لا غالب إلا الله وحده لا شريك له).

وبعد أن لقب أمير بغداد بمالك الدولة في سنة (٤٢٣هـ=١٠٣١م) بعث للخليفة ألطافاً كثيرة؛ وقد أرسلها قبل التلقيب، وإن كان قد أحب أن يلقب أولاً ثم يرسلها. وكانت هذه الهدايا ألفي دينار؛ وثلاثين ألف درهم، وعشرة أثواب خز، ومائة ثوب ديباج مرتفعة، ومائة أخرى دونها، وعشرين مناً عوداً، وعشرة أمعاء كافوراً، وألف مثقال عنبراً وألف مثقال مسكاً، وثلاثمائة مبخر صيني، وأرسل أيضاً هدايا أخرى لبعض رجال الحاشية.

خطاب الخليفة

وفي هذا العصر أيضاً ارتقت صور الأدب في حضرة الخلفاء حتى صارت على رسم بقي في جوهره مستمراً طول العصور. كان الخليفة المأمون حوالي سنة (٢٠٠هـ) يخاطب كما يخاطب أي رجل آخر بلفظ أنت. وكذلك كان يخاطب الخليفة المقتدر عادة حوالي عام (٣٠٠هـ)، وإن كانت تستعمل إذ ذاك طريقة الخطاب بضمير الغائب إلى جانب ذلك، فكان يقال أمير المؤمنين أمر بكيت وكيت. وفي أواخر القرن الثالث لم يكن من السائغ أن يخاطب أي رجل بمثل هذه البساطة.

وكان الأولون من مسلمي العرب يرون في تقبيل الأرض أمام المخلوقين اجترأ على حقوق الله؛ ولما قدم على المقتدر بالله رسل ملك الروم أعفاهم من تقبيل البساط لئلا يطالب المسلمون بمثل هذا في بوزنطة، على أنه حوالي عام (٣٣٠هـ) لما لقي الإخشيد الخليفة المتقي في الرقة ترجل عن بعد ومشى كالغلام بسيفه ومنطقته وجعبته بين يدي الخليفة على سبيل الخدمة، وقبل الأرض مراراً.

وكان الأمراء في مخاطباتهم الرسمية وفيما بينهم يتكلمون عن الخليفة، أمير المؤمنين، بكل احترام، ويعبرون في كلامهم عنه بمولانا، ويضع الواحد منهم نفسه من الخليفة موضع المولى؛ وكان أحدهم إذا كتب لآخر افتتح كتابه بالكلام عن الخليفة من نحو: «كتابي ومولانا أمير المؤمنين سالم موفور والله على ذلك محمود مشكور»، وكان كل شيء ينسب إلى أمره.

الموظفون في دار الخلافة

وكانت حاشية دار الخلافة ونفقاتهم في عهد الخليفة المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ = ٨٩٢-٩٠١ م) كما يلي:
١: أمراء بيت الخلافة.

٢: أصحاب النوبة من الرجالة، وأرزاقهم في كل يوم ألف دينار، منها سبعمائة دينار للبيضان، وهم البوابون، وثلاثمائة للسودان، وأكثرهم مماليك الخلفاء. ومن رسمهم أن ينوبوا في مصاف باب الخاصة وحوالي القصر. ولهم وظيفة خبز يميزون بها لقلة أرزاقهم.
٣: الغلمان المعتقون، وهم في الغالب مماليك الخلفاء؛ ومنهم يختار الحجاب، وعدتهم خمسة وعشرون، وخلفاء الحجاب، وكانوا نحو خمسمائة. ولما قتل المقتدر كان معه رجل من خلفاء الحجاب طرح نفسه عليه فذبح أيضاً. وفي سنة (٣٢٩ هـ = ٩٤٠ م) أنشئ لأول مرة منصب حاجب الحجاب.

٤: الختارون، وهم حرس مستخلصون للموكب وملازمة الدار والدخول أوقات جلوس الخليفة، والمقام من أول النهار إلى آخره. وكان جند كل قائد يبغداد بما فيهم مماليكه المسلحون يؤلفون وحدة قائمة بذاتها؛ فاختر الخليفة من قيادة من عرف بالشهامة والشجاعة، وسموا بأسماء قوادهم.

٥: أصناف أخرى من المرسومين بخدمة الدار والرسائل الخاصة والقراء وأصحاب الأخبار والمؤذنين والمنجمين والفنجاميين والفرانقيين والأنصار والحرس وأصحاب الأعلام والبوقيين والمخزقيين والمضحكين والطبالين والسقايين والطباخين والخبازين وخزنة السروج وعمال الإصطبلات الخمسة - خامسها للإبل - وأصحاب الصيد والملاحين في الطيارات، وخدمة المشاعل والأطباء.

٦: الحرم، وأرزاقهن في اليوم مائة دينار؛ وليس عندنا معرفة دقيقة بعددهن. وقد ذكر الخوارزمي ما زعمه البعض من أن المتوكل كان له اثنا عشر ألف سرية.
وكان في دار المقتدر حوالي عام (٣٠٠ هـ = ٩١٢ م) أحد عشر ألفاً من الخدم الخصيان، وفي رواية أخرى أنه كان بها سبعة آلاف خدام وسبعمائة حاجب.

وكانت نفقات دار الخلافة عظيمة جداً؛ فكانت نفقات المطابخ والمخابز عشرة آلاف دينار في الشهر. وكان يطلق في كل شهر في جملة نفقات المطبخ لثمن المسك وحده ثلاثمائة دينار، مع أن الخليفة لم يكن يأكل طعاماً فيه مسك، ولا يطرح له إلا اليسير في الخشكانج. ولما قعد القاهر في الخلافة أظهر من الجد والاختصار والقناعة ما هابه به الناس، فلما عرضت عليه صنوف الألوان والحلواء والفاكهة التي كانت توضع بين أيدي الخلفاء في كل يوم استكثرها، فأمر بأن يقتصر من الطعام على اثني عشر لوناً.

وكان يقدم لغيره في كل يوم ثلاثون لوناً من حلواء فاقتصر على ما يكفيه.

وجرت العادة منذ عام (٣٣٤هـ=٩٤٥م) أن تنهب دار الخلافة بعد موته أو خلعه حتى لا يبقى فيها شيء. وفي سنة (٣٨١هـ=٩٩١م) لما خلع الطائع حول ما كان في دار الخلافة من المال والثياب والأواني والمصاغ والفروش والآلات والرخام والخشب والساج والتمثيل والأبواب والشبابيك والرصاص حتى خلت دار الخلافة.

الأشراف

كان الشرف والسيادة نتيجة للمال وللسيطرة السياسية، وهما شيئان في غاية الدناءة. وقد أهمل المسلمون مسألة الدم وخصوصاً دم الأم إهمالاً شديداً، وذهبت قلة الاكثارات بذلك إلى حد أن جميع الخلفاء في القرنين الثالث والرابع للهجرة كانوا أبناء جوار من الترك أو الروم؛ وكاد رجل أسود في أوائل القرن الثالث الهجري أن يرتقي إلى عرش الخلافة.

على أن الإسلام أوجد نوعاً من شرف الدم لا يزال باقياً إلى عصرنا هذا، وذلك في قرابة النبي (صلى الله عليه وآله) أو بني هاشم أو أهل بيت رسول الله (عليهم أفضل الصلاة والسلام) أو (أهل البيت عليهم السلام) باختصار؛ وكانوا يأخذون، باعتبارهم قرابة النبي (صلى الله عليه وآله)، راتباً من الحكومة، وكذلك حرمت عليهم الصدقة هم ومواليهم^{٢٤}.

وكان لهم^{٢٥} قضاء مستقل بهم يتولاه نقيبهم الذي يعينه الخليفة. وكان لهم نقيب لا في بغداد فقط، بل في المدن الكبرى مثل واسط والكوفة والبصرة والأهواز. وفي سنة

^{٢٤} - لكن هذا الشرف إنما هو لمصلحة الإسلام والمسلمين فقط لا لامتياز لهم في أمر من الأحكام الشرعية إلا تحريم الزكاة وحلية الخمس و ما أشبه ذلك، كما قرر في الفقه. (م).

^{٢٥} - في بعض الأوقات لا مطلقاً.

(٣٥١هـ=٩٦١م) كانت نقابة الطالبين بمصر للشاعر أبي القاسم أحمد بن محمد بن إسماعيل طباطبا. وكان نقيب العلويين في عهد الفاطميين أيضاً من كبار رجال دار الخلافة. وقد انتهى إلينا كتاب بتقليد أبي أحمد الحسين بن موسى نقابة الطالبين سنة (٣٥٤هـ=٩٦٥م)، ونرى من هذا الكتاب أن النقيب هو الذي يحكم أيضاً في النزاع بين الطالبين وبين سائر رعية الخليفة.

وكان الفرعان المربوطان بالنبي (صلى الله عليه وآله)، وهم العباسيون الذين وصلوا إلى الرياسة، والطالبيون الذين لم يبلغوها، يخضعون جميعاً لنقيب واحد حتى القرن الرابع. وفي آخر هذا القرن صار لكل فريق منهم نقيب خاص.

ولم يكن للعلويين شارة يتميزون بها، كما تدل على ذلك الحكاية التي أوردها عريب بن سعيد القرطبي في كتابه (صلة تاريخ الطبري)؛ أما اللون الأخضر فلم يجعل شارة لهم إلا أخيراً في القرن الثامن الهجري^{٢٦}.

وفي سنة (٢٠٩هـ=٨٢٤م) أحصى عدد العباسيين، فكانوا ثلاثة وثلاثين ألفاً، على حين أن الجاحظ حوالي ذلك الوقت يقول: "إن آل أبي طالب أحصوا منذ أعوام وحصلوا، فكانوا قريباً من ألفين وثلاثمائة"^{٢٧}.

وحاول محمد بن الخليفة المستكفي الذي خلع سنة (٣٣٤هـ=٩٤٥م) أن يستولي على الدولة، مستعيناً بما جاء في الأخبار من ظهور المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف).

فظهرت دعوته بين الخاص والعام، وادعى أنصاره أنه «يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويجاهد أعداء المسلمين ويجدد ما عفا من رسوم الدين □»، فتطلعت إليه نفوس العامة، وجعل دعاته يأخذون له البيعة على الرجل بعد الرجل. فمن كان من أهل السنة قالوا له إنه عباسي، ومن كان من أهل التشيع قالوا له إنه علوي، ودخل جماعة من وجوه الكتاب وأمائل الناس في هذا الأمر، ودخل خلق كثير من الديلم والترك والعرب. وكان فيهم

^{٢٦} - ذكرنا في بعض الكتب إن شارة الأخضر التي جعلها المأمون للإمام الرضا ؑ كانت عادة فارسية لا عادة علوية، ثم لم يلتزم بها الأئمة (عليهم السلام) بعد الرضا ؑ.

^{٢٧} - احصى السادة وهم ذراري رسول الله ﷺ من ولده علي وفاطمة ؑ بعض من في زماننا . إحصاءاً تقريبياً . فكانوا زهاء خمسين مليون.

سبكتكين القائد العجمي، وكان يتشيع، فقال له الدعاء: إن الرجل علوي؛ ووعدوه بأن يفلد
إمرة الأمراء، فاستجاب للدعوة؛ ثم ظهر لسبكتكين أن الرجل عباسي لا علوي، فتغيرت نيته
وتصوره بصورة المحتال؛ ثم انتهى أمره بأن قبض عليه بختيار وعلى أخيه وأسلمهما للخليفة
المطيع لله؛ فأمر بجدع أنف صاحب الدعوة، وقطع أذن أخيه وحبسهما؛ ثم هربا وخفي
أمرهما.

المبرات

وكانت أول ما تعطى المبرات إلى أقارب النبي (صلى الله عليه وآله)، فكان أحمد بن أبي يعقوب بن يوسف بن إبراهيم المعروف بابن الداية (المتوفى عام ٣٤٠هـ) يجري بمصر في عهد ابن طولون الجرايات على الأشراف الطالبين، ومنهم من كان ينال مائتي دينار في كل سنة. وكان الوزير علي بن عيسى في أوائل القرن الرابع ينفق كل سنة أربعين ألف درهم في صلوات الطالبين والعباسيين وأولاد الأنصار والمهاجرين وفي مصالح الحرمين.

وإذا نظرنا إلى قلة جاري بني هاشم، وهو ربع دينار في الشهر، علمنا أنهم لا بد أن يكونوا جميعاً علويين وعباسيين في فاقة شديدة؛ ونجد أحد الهاشميين يشتغل عيناً بجمع الأخبار.

ومما يحكى عن كافور الإخشيدي صاحب مصر أنه وقفت له امرأة في طريقة وصاحت به: ارحمني يرحمك الله، فدفعها أحد رجاله دفعاً عنيفاً، فسقطت؛ فاغتاظ وأمر بقطع يده؛ فقامت تشفع له؛ فتعجب من مكرمتها، وقال: أسألها عن أصلها، فما تكون إلا من بيت عظيم؛ فسئلت، فإذا بها علوية؛ فعظم الأمر على كافور وقال قد أغفلنا الشيطان عن نساء الأشراف؛ وأحسن إليها وتفقده سائر نساء الأشراف وأدر عليهن الإحسان والجرايات.

وكان كلما قوي أمر الشيعة ببغداد وأظهروا الاحتفال بأعيادهم، قابل العباسيون السنيون ذلك بنهوض من جانبهم وفعلوا مثل ما يفعله الشيعة؛ وأكبر من كان يفعل ذلك السنيون في باب البصرة.

وحوالي عام (٣٥٠هـ=٩٦١م) وقعت فتنة عظيمة ببغداد. بسبب نزاع علوي وعباسي. فقبض الوزير المهلي الحازم على كثير من مثيري الفتنة من العباسيين وجعلهم في زوارق مطبقة مسمرة وأنفذهم للحبس في بعض مدن العراق.

وقد أراد القائد عميد الجيوش في سنة (٣٩٢هـ=١٠٠٢م) أن يضع حداً لهذا العداوة القديمة بين أهل السنة والشيعة ببغداد، فقد أرسل لإخماد الفتنة القائمة، فطلب الثوار من العلويين والعباسيين، فكانوا إذا وقعوا أمر أن يقرن العلوي بالعباسي ويغرقت نهاراً بمشهد من الناس.

وقد عمل الجميع على خدمة قضية العلويين، فأنشأوا دولة علوية في جبال فارس، وفتحوا مكة بعد منتصف القرن الرابع، وجعلوها عاصمة البلاد المقدسة، واستطاعوا بدهاء أن يستغلوا المنافسة الشديدة القائمة بين القاهرة وبغداد لمصلحة هذا المركز الجديد.

من ملوك الشيعة

وكان الملوك الجدد في الغرب والشرق وهم الحمدانيون والبويهيون على مذهب الشيعة؛ وكان ازدياد التكريم للنبي (صلى الله عليه وآله) مما أسبغ على أبنائه تكريماً كبيراً؛ ويحكى أن كافور الإخشيدي كان يوماً في موكب، فسقط منه سوطه؛ فناوله إياه أحد الشرفاء، فقبل يده شكراً وقال له: «نعيت إلي والله نفسي، فما بعد أن ناولني ولد رسول الله (صلى الله عليه وآله) سوطي غاية يتشرف لها». وكان الإخشيد يخلف أباه طعجا على طبرية، وكان أهلها شيعة؛ وكان بها أبو الطيب العلوي وجه البلد شرفاً وملكاً وقوة؛ فكتب الإخشيد لأبيه يذكر أنه ليس له أمر ولا نهي مع أبي الطيب.

وكان الحج قد تعطل منذ عام (٣١٧هـ حتى عام ٣٢٧هـ) لاعتراض القرامطة؛ فكاتبهم أحد العلويين، وكانوا يخشونه لشجاعته وكرمه، حتى انتهى الأمر بتسهيل سبيل الحج. وكذلك كان العلويون هم الذين يتوسطون عادة فيما يقوم من خصومات في بيوت الشيعة من بني حمدان وبني بويه؛ وإذا عرفنا ما كان يعود على العلويين من هذا التوسط، استطعنا أن نستنبط مقدار ما لحقهم من الخسارة حينما اضطرتهم حكومة بغداد أن يحددوا موقفهم بإزاء الفاطميين، وأن يبنذوهم ولا يعتبروهم من أبناء عليّ الحقيقيين.

وفي سنة (٤٠٣هـ = ١٠١٢م) صدر كتاب من الأمير بهاء الدولة بأن يضاف إلى الرضى الموسوي النظر في أمور جميع الطالبين بجميع البلاد، وجعله نقيب النقباء، ولم يبلغ ذلك أحد من أهل البيت عليه السلام.

الرقيق

كان إتخاذ الرقيق منتشراً عند اليهود والنصارى والمسلمين، وقد استلقت نظر المسلمين أن اليهود والنصارى لا يجوز لهم أن يتمتعوا بإمائهم وذلك لأن القانون المسيحي في الشرق كان يعتبر اقتراب الرجل من أمته زنا عقابه المنع من البيعة؛ ويحق للزوجة في هذه الحالة أن تباع الجارية وتقصيها عن البيت، وإذا حملت الجارية من سيدها المسيحي طفلاً فإنه ينشأ

رقيقاً يحمل عار والده الزاني.

أما في الإسلام فإن الطفل الذي يولد للمسلم من أمته يكون حراً، ولا يجوز للرجل أن يبيع الأمة أم الولد؛ ثم هي تصبح حرة بعد موت زوجها؛ ولا يجوز في الشرع الإسلامي أن يشترك رجلان في أمة في وقت واحد.

وفي القرن الرابع الهجري كانت مصر وجنوب جزيرة العرب وشمال إفريقية أكبر أسواق الرقيق الأسود؛ وكانت قوافل هذه البلاد تجلب الذهب والعييد من الجنوب؛ وكان الثمن الجاري للعبد حوالي منتصف القرن الثاني الهجري مائتي درهم.

وإذا كان المجتمع يعنى بالشعر الجيد وبالموسيقى الجميلة أكثر مما يعنى بغيرهما من ألوان الفن، عظمت فيه قيمة الغلمان والحواري الموهوبين المتعلمين.

وكان في عهد الرشيد ببغداد مغن مشهور قد يتفق عنده وجود ثمانين جارية لإخوانه يودعون عنده لتعليمهن فن الغناء. وكانت تشتري الجارية من هؤلاء بألف دينار إلى ألفين. وقد يحدث أن يكون بيت النحاس مكاناً يكثر غشيانه الشعراء. وكان معظم القيان اللائي يحترفن الغناء ببغداد في سنة (٣٠٦هـ) جواري، وقليل منهن أحرار.

وكان للمشهورات من حذاق المغنيات أثمان كبيرة؛ فحوالي عام (٣٢٥هـ) اشترى ابن رائق أمير العراق جارية مولدة كانت لابنة ابن حمدون النديم؛ وكانت سمراء موصوفة بحسن الغناء، فاشتراها ابن رائق من موالها بثلاثة عشر ألف دينار، وأعطى من دله عليها ألف دينار؛ ويحكى الصولي أن ابن رائق اشتراها بأربعة عشر ألف دينار.

وقد ارتفعت أثمان الخدم البيض ارتفاعاً خاصاً حينما خربت الثغور الغربية، وانقطع عبيد الأندلس في القرن الرابع، وكاد ينضب المصدر الوحيد الباقي للرقيق، وهو بوزنطة وأرمينية. ومما زاد في ذلك أن أهل المملكة الإسلامية من المسلمين والذمة لم يكن يجوز أن يسترقوا بوجه من الوجوه القانونية؛ ولم يكن الإجماع سبباً يكفي لحرماتهم من حريرتهم كما هو الحال عند غير المسلمين. وكذلك كان يجرم على الآباء المسلمين أن يبيعوا أولادهم، كما كان الحال عند اليهود مثلاً؛ فإنهم كانوا إذا احتاجوا باعوا أولادهم الصغار غير البالغين.

أما في سائر المملكة الإسلامية فقد اقتصر المسلمون في العبيد البيض على الترك وعلى الصقالبة، وهم الجنس الذي لا ينفذ معينه.

وكان الصقلابة يقدمون على الترك، حتى قال الخوارزمي:

ويستخدم التركي عند غيبة الصقلي. وأكبر ما كان يجلب من بلغار، وهي قصبه البلغار الذين يقطنون حول نهر الفلجا، رقيق كانوا يؤخذون من هناك إلى إقليم جيحون، وكانت سمرقند أكبر سوق لهم وهي مشهورة بأن خير رقيق ما وراء النهر ما كان من تربيتها. وكان في أهل سمرقند جمال، وكان لهم حسن تعهد لأنفسهم بما زادوا به على أهل خراسان؛ وكانت بلدتهم لذلك مشهورة بأنها مركز للتربية والتهذيب، وكان أهلها يتخذون ذلك صناعة لهم يعيشون منها كما هو الحال اليوم في جنيف ولوزان.

أما الطريق الثاني الذي كان يأتي منه رقيق الصقلابة، فقد كان يخترق ألمانيا إلى الأندلس وإلى الموانئ البحرية بإيطاليا وفرنسا.

وكان أغلب تجار العبيد في أوروبا من اليهود، وكان الرقيق يجلب كله تقريباً من الشرق الأوروبي، كما هو الحال اليوم في تجارة النساء^{٢٨}. ومن الجلي أن استقرار جاليات يهودية في مدن مقاطعة سكسونيا الشرقية مثل مدينة مجديبورج ومرزيبورج كان راجعاً إلى تجارة الرقيق. والطريق الثالث لتجارة الرقيق يسير من بلاد الرقيق في الغرب. وكانت هذه البلاد بسبب حروبها مع الألمان كثيرة الإنتاج لهذه البضاعة الإنسانية. ويتجه نحو الشرق رأساً ماراً بمدينة براغ وبولونيا وروسيا.

ومن عادة النحاسين أن يطولوا الشعور بأن يصلوا في طرفها من جنسها، وأن يزيلوا روائح الأنف بالسعوط بدهن البنفسج والنيلوفر ونحوهما، وأن يجلبوا الأسنان بالسواك وبالأشنان والسكر وسحيق الصيني أو الفحم أو الملح المدقوق؛ وكانوا يزيلون الشعث في أصول الأظفار بغسلها بالخل والعسل والمرنك أو دهن الورد واللوز المر.

ومن وصايا النحاسين للجواري أن يتبرجن للمشتري تارة ويختفين منه أخرى، فإن هذا مالك للقلوب، وأن يدارين المشايخ والنافري الطباع ويستملنهم، ويتجنبن الشباب، ويمتنعن عليهم ليتمكن من قلوبهم. وكان الجواري يخضبن حواجبهن بالرامك، وأطرافهن إن كانت الجارية بيضاء بالخضاب الأحمر، وإن كانت صفراء بالأسود، ويجرون الصناعة مجرى الطبيعة

^{٢٨} - ذكر الأسقف اجوبارد، أسقف مدينة ليون (Agobard of Lyon) في كتابه *Insolentia Judaeorum* أمثلة على أن بعض اليهود كانوا يسرقون أبناء النصارى الفرنسيين أو يحصلون عليهم شراء من النصارى أنفسهم ويبيعونهم للمسلمين في أسبانيا.

في كشف الضد بال ضد.

وقد جرت العادة منذ العصر الأول للإسلام بألا يسمى العبيد عبيداً، بل يسمى العبد فتى والأمة فتاة؛ وقد نسب هذا. كما نسب كثير غيره. إلى أمر النبي (صلى الله عليه وآله). وكان من التقوى وشرف النفس ألا يضرب الرجل عبده؛ ويروى عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: «شر الناس من أكل وحده ومنع رفته وضرب عبده».^{٢٩}

وفي القرن الرابع الهجري إتخذ البعض من قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾^{٣٠} نقداً يوجهونه لمن يضرب عبده، وكذلك قال الشاعر:

إِنْ كُنْتَ تَطْلُبُ فَضالاً إِذَا ذَكَرْتَ وَمَجْداً
فَكُنْ لِعَبْدِكَ خالاً وَكُنْ لَخَلْكَ عَبْداً

ولذلك جاء في وصف رجل من أشرف اليمن وذكر جميل خصاله (حوالي عام ٥٠٠هـ=١١٠٦م) أنه لم يكن يضرب مملوكاً أبداً. وقد حدث في أول عهد الأمويين أن امرأة من حمير كانت بمصر جدعت أنف أمة لها، فقضى عبد الرحمن بن حجية قاضي مصر بعقتها، وقضى بولائها للمسلمين يعقلون عنها ويربوها.

وكان في الإسلام مبدأ في مصلحة الرقيق؛ وذلك أن الواحد منهم كان يستطيع أن يشتري حريته بدفع قدر من المال؛ وقد كان للعبد أو الجارية الحق في أن يشتغل مستقلاً بالعمل الذي يريده؛ فيحدثنا المسعودي مثلاً عن عبد خياط كان عليه لمولاه ضريبة قدرها درهمان يدفعها له كل يوم، ويتصرف بعدها في حوائجه بما يبقى. وكذلك كان من البر والعادات المحمودة أن يوصي الإنسان قبل مماته بعقب بعض العبيد الذين يملكهم.

وكان أرقى العبيد مكانة هم حملة السلاح منهم؛ وذلك لأن منهم من كانوا قواداً كباراً مثل مؤنس وجوهر؛ بل منهم من كان حاكماً مثل كافور بمصر وسبكتكين في بلاد الأفغان. ومنذ عهد العباسيين الأولين نجد عبداً تركياً يتولى إمارة مصر، وهو يحيى بن داود الخراسي الذي ولي الإمارة من سنة (١٦٢-١٦٤ هـ).

وعلى الرغم من كل الظروف الملائمة والضمانات القانونية والمكانة الحسنة التي يتمتع بها رقيق البيوت في الشرق اليوم فلا ينبغي أن نصور مركز الرقيق عند المسلمين في العصور

^{٢٩} - راجع بحار الأنوار: ج ١٦ ص ٢٤٦ ب ٩ ح ٣٥. (بيان). والبحار: ج ٧١ ص ١٤١ ب ٤ ح ٧.

^{٣٠} - سورة الحجرات: ١٠.

الوسطى تصويراً يزيد بهاء، وكانت سائر ولايات الإسلام في القرن الرابع خاصة بالعبيد الأباق وكان معظم العبيد الأباق مما يشتغلون بالزراعة.

تعليقات^{٣١}

وللرق سببان جوهريان: الفقر والحرب، والحرب أقواهما؛ وكذلك كان الرق عند المسلمين نتيجة للحروب في الغالب.

والحرب والرق متصلان اتصالاً وثيقاً في العهد القديم، فنجد في التوراة (عدد إصحاح ٣١ آية ٢): أن الرب يكلم موسى t قائلاً: (انتقم نقمة لبني إسرائيل من المديانيين)؛ وفي الآية السابعة وما بعدها: (فتجدوا على مديان، كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر... وسي بنو إسرائيل نساء مديان وأطفالهم).

أما فيما يختص بالأجانب، فقد أبيع لبني إسرائيل أن يستعبدوهم، (لاويين إصحاح ٢٥ آية ٤٤ وما بعدها): «وأما عبيدك وإماؤك الذين يكونون لك، فمن الشعوب الذين حولكم، منهم تقتنون عبيداً وإماء؛ وأيضاً من أبناء المستوطنين النازلين عندكم، منهم تقتنون، ومن عشائركم الذين عندكم الذين يلدوهم في أرضكم فيكونون ملكاً لكم، وتستملكوهم لأبنائكم من بعدكم ميراث ملك، تستعبدوهم إلى الدهر؛ وأما اخوتكم بنو إسرائيل فلا يتسلط إنسان على أخيه بعنف».

وكما أن أبناء الإماء المملوكة عند المسلمين يؤلفون طائفة من الرقيق، مثلهم مثل من يشتري بالمال، فكذلك نجد في العهد القديم هذين الاصطلاحين: «الذي يولد في البيت»، و«الذي يشتري بالمال»، وهذا يدل على أن العبيد عند اليهود، كما هو الحال عند المسلمين، يتكاثرون بالنسل، وينطبق هذا بالطبع على جميع من يتجر بالرقيق. ولما كان العبيد ملكاً لأصحابهم، فأبناؤهم ملك لهم أيضاً.

ومن وجوه التطابق الأخرى بين الإسلام والعهد القديم، جعل الرق مقصوراً على

^{٣١} - هذا تلخيص لتعليق العلامة الهندي المرحوم (خدا بخش) على الترجمة الإنجليزية لهذا الفصل.

الأجانب عن الدين، ففي التوراة (لاويين إصحاح ٢٥ آية ٣٩ وما بعدها):
«وإذا افتقر أخوك، وبيع لك، فلا تستعبده استعباد عبد، كأجير نزيل يكون عندك إلى
سنة اليوبيل يخدم عندك، ثم يخرج من عندك هو وبنوه معه ويعود إلى عشيرته وإلى ملك آبائه،
لأنهم عبيدي الذي أخرجتهم من أرض مصر، لا يباعون بيع العبيد، لا تتسلط عليه بعنف
بل اخش إلهك».

وكذلك الحال عند المسلمين، فلا يجوز لهم أن يسترقوا المؤمنين.
ولكن الأمر عند البابليين كان على خلاف ذلك، فلم يكونوا يبالون أن يكون الرقيق
منهم أو من غيرهم، فكان الرجل يبيع ابنه الحقيقي أو المتبني إذا أجرم في حق أبيه.
وكذلك كان الزوج في حل من أن يتخلص من زوجته المشاكسة بأن يبيعهها. وكان العدو
المأسور عندهم يعامل معاملة العبد.

توصية القرآن بالعبيد

..أوصى القرآن بالعدل والرحمة في معاملة الأراامل واليتامى؛ وهو يوصي بمثل هذا في معاملة الرقيق، وذلك لأن الحر والعبد كليهما عباد الله، فهما متساويان؛ جاء في القرآن: ﴿والله فضل بعضكم على بعض في الرزق فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيماهم فهم فيه سواء، أفبنعمة الله يجحدون﴾^{٣٢}.

وجاء أيضاً: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيماكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾^{٣٣}.

توصية النبي ﷺ بالعبيد

وقد قال النبي (صلى الله عليه وآله) في الحديث: (العبيد إخوانكم، فأطعموهم مما تأكلون).

وقال (صلى الله عليه وآله): (إخوانكم حولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم).

وإذا كان النبي (صلى الله عليه وآله) لم يبلغ الرق، فإنه قد أمر بما يضمن للأرقاء حسن المعاملة؛ وإذا كان المسلمون يخالفون عن أمره، فالنبي (صلى الله عليه وآله) بريء من ذلك؛ ولو أن المسلمين أطاعوا ما أمرهم به نبيهم في معاملتهم لما ملكت أيماهم، لكان حال الرقيق عند المسلمين أحسن منه عند غيرهم.

على أننا لو نظرنا إلى معاملة الرقيق في جملتها بحسب الشرع الإسلامي لوجدناها عادلة؛ فقد كانت عقوبة الزانية أقل من عقوبة الحر، لأنها تعتبر أقل ذنباً بسبب ما ينقصها من حرية. وقد أوصى الشرع بالعناية بالعبيد، وعدم تكليفهم ما لا يطيقون.

وكان الرقيق تنتقل ملكيته مثل سائر الممتلكات، فكان يستطيع المسلم أن يبيع ما

^{٣٢} - سورة النحل: ٧١.

^{٣٣} - سورة النساء: ٣٦.

ملكته يمينة، إلا إذا كانت جارية قد ولدت منه، وكان يندر أن ينكر أبوة ولده، حتى يجوز له بيعها.

إن الشرع الإسلامي لم يكتف بتشديد الوصية في حسن معاملة الرقيق، بل مكن العبيد من استعادة حريتهم، إذا كانوا بحسن سيرتهم أهلاً لذلك؛ وقد حيب الإسلام، في عتق الرقيق؛ جاء في القرآن: ﴿والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيماكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾^{٣٤}.

وتختلف طريقه هذا التحرير في بلاد الإسلام؛ فكان من الناس من يعتق، كرماءً منه، عتقاً كاملاً؛ ومنهم من كان يطلقه على أن يدفع له مقداراً من المال فيما بعد، ويكون هذا بعقد مكتوب، أو بكلام شفاهي يشهد عليه رجلان، أو بأن يعطي الرجل لمملوكه وثيقة شرائه من مالكة قبله، وقد تمنح للعبد حريته إذا أدى شروطاً متفقاً عليها أو بموت مالكة غالباً. ويجوز أن يوصي الرجل بثلث ماله لمن ملكته يمينة، ولا يزيد عن الثلث، وإلا أخذ الورثة الزيادة؛ وقد جعل القرآن عتق رقاب الرقيق كفارةً لذنوب كثيرة، وقربةً من أحسن القرب.

وإذا كان العهد القديم قد تعرض لتحرير العبيد اليهود الذين صاروا أرقاء بسبب الدين. فإن الإسلام قد تعرض لتحرير الرقيق جملةً^{٣٥}.

^{٣٤} - سورة النور: ٣٣.

^{٣٥} - ذكرنا تفصيل الرق في الإسلام في كتاب (الفقه: العتق) (م).

العلماء

في القرن الثالث الهجري صار الأدباء الذين نشأوا حول الخلفاء وفي قصورهم وتعلموا الأدب على تقاليد الفروسية، أدباء من طراز جديد، يلمون بكل شيء ويشبهون في عصرنا الصحفيين غير المتخصصين الذين يتكلمون في جميع الأمور. ولهذا نجد العلماء يفرقون بين أنفسهم وبين الأدباء، حتى قال ابن قتيبة: «من أراد أن يكون عالماً فليطلب فناً واحداً؛ ومن أراد أن يكون أديباً فليوسع في العلوم».

ومن التغيرات الأخرى أن علم الفقه تميز عن غيره من علوم الدين، وأصبح العلماء فريقين: الفقهاء، والعلماء على الحقيقة. وكانت غالبية طلبة العلم المتكسبين يقصدون الفقهاء، لأن الفقهاء هم حملة علوم الشريعة والعبادات، فكان لابد لمن يريد تولي القضاء والخطابة في المساجد من التلمذ عليهم.

وكان نهوض علم الكلام بعد أن تخلص من قيود علم الفقه، وكذلك ظهور الأفكار الجديدة في ذلك العصر مما رفع شأن العلماء إلى درجة عالية من الاحترام والتقدير.

وكان صاحب العلوم الدنيوية يسمى كاتباً، وكان يتميز عن العلماء في لباسه، فكان العلماء يلبسون الطيلسان، وكانوا في خراسان يظهرون متطلسين متحنكين؛ وكانت فارس مركز الكتاب، وكانوا في مدينة شيراز يُرفعون على العلماء. ولكن خراسان كانت جنة العلماء، ولا يزال العلماء بها إلى اليوم يتمتعون بجاه واحترام لانظير لهما في سائر البلاد.

ومن أمثلة ذلك أن أحد العلماء الزهاد دخل خراسان، فخرج أهلها بنسائهم وأولادهم يمسخون أردانه، ويأخذون تراب نعليه ويستشفون به. وكان يخرج من كل بلد أصحاب البضائع بضائعهم وينثرونها، ما بين حلوى وفاكهة وثياب وفراء وغير ذلك، وهو ينهاهم، حتى وصلوا إلى الأساكفة، فجعلوا ينثرون المتاعات وهي تقع على رؤوس الناس؛ وخرج إليه صوفيات البلد بمساجهن وألقينها إليه، وكان قصدهن أن يلمسها فتحصل لهن البركة، فكان يتبرك بهن ويقصد في حقهن ما قصدن في حقه.

المكتبات

وكان في كل جامع كبير مكتبة، لأنه كان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على الجامع. ويقال: إن خزانة الكتب بمرو كانت تحوي كتب يزدجرد، لأنه حملها إليها وتركها. وكان الملوك يفاخرون بجمع الكتب حتى كان لكل ملك من ملوك الإسلام الثلاثة الكبار بمصر وقرطبة وبغداد في أواخر القرن الرابع ولع شديد بالكتب؛ فكان الحكم صاحب الأندلس يبعث رجالاً إلى جميع بلاد المشرق ليشتروا له الكتب عند أول ظهورها؛ وكان فهرس مكتبته يتألف من أربعة وأربعين كراسة، كل منها عشرون ورقة، ولم يكن بها سوى أسماء الكتب. أما في مصر فكانت للخليفة العزيز (المتوفى عام ٣٨٦هـ=٩٩٦م) خزانة كتب كبيرة؛ فأخرج من الخزانة مائة نسخة منها. وقد أراد المتأخرون أن يقدرها عدد ما كانت تشتمل عليه هذه الخزانة، فيقول المقرئ: إنها كانت تشتمل على ألف وستمئة ألف كتاب.

ولنذكر ما كان في بعض خزائن الكتب في الغرب على سبيل المقارنة: كان في مكتبة الكاتدرائية بمدينة كنستانز في القرن التاسع الميلادي ثلاثمائة وستة وخمسون كتاباً، وفي مكتبة دير البندكتيين عام (١٠٣٢م) ما يزيد على المائة بقليل، وفي خزانة كتب الكاتدرائية في مدينة بامبرج سنة (١١٣٠م) ستة وتسعون كتاباً فقط.

وقد عمل علي بن يحيى المنجم، وكان ممن جالس الخلفاء، حوالي منتصف القرن الثالث الهجري، خزانة كتب عظيمة في ضيعته، وسماها خزانة الحكمة؛ وكان يقصدها الناس من كل بلد، فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم؛ والكتب مبذولة لهم والصيانة مشتملة عليهم، والنفقة في ذلك من مال علي بن يحيى.

فقدم أبو معشر المنجم من خراسان يريد الحج، وهو إذ ذاك لا يحسن كبير شيء من النجوم؛ فوصفت له الخزانة؛ فمضى وراها، وهاله أمرها؛ فأقام بها.

وفي سنة (٣٥٥هـ=٩٦٥م) نهب قوم من الغزاة دار الوزير أبي الفضل ابن العميد بالري، فلما انصرف إلى داره ليلاً لم يجد فيها ما يجلس عليه، ولا كوزاً واحداً يشرب فيه؛ وكان ابن مسكويه المؤرخ في ذلك الحين خازناً لكتب ابن العميد؛ وهو يقص علينا القصة، فيقول:

(فأنفذ إليه أبو حمزة العلوي فرشاً وآلة، واشتغل قلب الوزير ابن العميد بدفاتره، ولم يكن شيء أعز عليه منها، وكانت كثيرة، فيها كل علم وكل نوع من أنواع الحكم والآداب، يحمل على مائة وقر، فلما رأني سألتني عنها فقلت: هي بحالها لم تمسسها يد، فسري عنه، وقال:

أشهد أنك ميمون النقيبة؛ أما سائر الخزانين فيوجد منها عوض، وهذه الخزانة هي التي لا عوض منها؛ ورأيتَه قد أسفر وجهه، وقال: باكر بها غداً إلى الموضع الفلاني ففعلت، وسلمت بأجمعها من بين جميع ماله).

وقد استدعى السلطان نوح بن منصور الساماني صاحب بن عباد (المتوفى ٣٨٤هـ=٩٩٤م) ليوليه وزارته، فكان مما اعتذر به أنه لا يستطيع حمل أمواله، وأن عنده من كتب العلم خاصة ما يحمل على أربعمئة جمل أو أكثر، وكان فهرس كتبه يقع في عشرة مجلدات، ولما ورد السلطان محمود الري استخرج من بيت كتب صاحب كل ما كان في علم الكلام وأمر بحرقه، وكذلك لم يجد البيروني من قبل، ولا الفردوسي من محمود هذا مشجعاً ولا حامياً.

ولما تولى قاضي القضاة عبد الجبار منصبه، كان الوزير ابن عباد المتوفى عام ٣٨٦هـ=٩٩٦م) هو الذي أنشأ له العهد وكتبه له بخطه واعتنى بزخرفته، ويقال إنه كان سبعمئة سطر كل سطر ورقة سمرقندي، وله غلاف أبنوس يطبق كالأسطوانة الغليظة؛ وقد أهدي هذا العهد في القرن الخامس الهجري للوزير نظام الملك مع هدايا أخرى كان منها مصحف بخط أحد الكتاب المهودين بالخط الواضح، وقد كتب كاتبه اختلاف القراء بين سطوره بالحمرة، وتفسير غريبه بالخضرة، وإعرابه بالزرقرة، وكتب بالذهب علامات على الآيات التي تصلح للانتزاعات في العهود والمكاتبات وآيات الوعد والوعيد، وما يكتب في التعازي والتهاني.

المؤسسات العلمية

على أنه قد ظهرت إلى جانب دور الكتب مؤسسات علمية أخرى تزيد على دور الكتب بالتعليم، أو على الأقل بإجراء الأرزاق على من يلازمها؛ فيحكى عن أبي القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلبي الفقيه الشافعي المتوفى عام (٣٢٣هـ=٩٣٥م) أنه أسس داراً للعلم في بلده، وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وفقاً على كل طالب للعلم، لا يمنع أحد من دخولها، وإذا جاءها غريب يطلب الأدب، وكان معسراً، أعطاه ورقاً وورقاً.

وقد عمل القاضي ابن حبان (المتوفى عام ٣٥٤هـ=٩٦٥م) في مدينة نيسابور داراً للعلم وخزانة كتب ومساكن للغرباء الذين يطلبون العلم وأجرى لهم الأرزاق؛ ولم تكن الكتب تعار

خارج الخزانة.

وفي سنة (٣٨٣هـ) أسس أبو نصر سابور بن أردشير وزير بني بويه داراً للعلم في الكرخ غربي بغداد، ونقل إليها كتباً كثيرة اشتراها وجمعها؛ وكان بها مائة نسخة من القرآن بأيدي أحسن النساخ، هذا إلى عشرة آلاف وأربعمائة مجلد أخرى معظمها بخط أصحابها أو من الكتب الذي كان يملكها رجال مشهورون؛ وردّ النظر في أمرها ومراعاتها والاحتياط عليها إلى رجلين من العلويين يعاونهما أحد القضاة.

وكذلك اتخذ الشريف الرضي (المتوفى عام ٤٠٦هـ=١٠١٥م) نقيب العلويين والشاعر المشهور داراً سماها دار العلم، وفتحها لطلبة العلم، وعين لهم جميع ما يحتاجون إليه. ويدل مجرد اسم هذه المؤسسات على الفرق بينها وبين دور الكتب القديمة؛ فكانت دار الكتب قديماً تسمى خزانة الحكمة، وهي خزانة كتب ليس غير؛ أما المؤسسات الجديدة فتسمى دور العلم، وخزانة الكتب جزء منها.

وقد أنشئت في مصر أيضاً مثل هذه الدور؛ فقد اشترى العزيز بالله الخليفة الفاطمي في سنة (٣٧٨هـ=٩٨٨م) داراً إلى جانب الجامع الأزهر، وجعلها لخمسة وثلاثين من العلماء. وكان هؤلاء يعقدون مجالسهم العلمية بالمسجد في كل يوم جمعة بعد الصلاة حتى صلاة العصر. فالجامعة الأزهرية التي هي أكبر معهد علمي إسلامي اليوم نشأت في القرن الرابع الهجري.

وكان الوزير ابن كلثوم يحب أهل العلم والأدب ويقريهم؛ وكان يجري بأمر العزيز بالله ألف دينار في كل شهر على جماعة من أهل العلم والوراقين والمجلدين. ثم جاء الخليفة الحاكم بأمر الله ففتح في سنة (٣٩٥هـ) الدار الملقبة بدار العلم بالقاهرة، وحمل الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة ودخل سائر الناس إليها يقرؤون وينسخون، وأقيم لها خزان وبوابون، ورتب فيها قوم يدرسون للناس العلوم؛ وكان في هذه الدار ما يحتاج الناس إليه من الخبر والأقلام والمحابر والورق، وقد بقيت هذه الدار إلى أن أبطلها الأفضل بن أمير الجيوش. وكانت معظم دروس الفقه والكلام تعطى في المسجد، والمستمعون على هيئة حلقة بين يدي المدرس. وكان هذا يتخذ مكانه إلى جانب أسطوانة في المسجد مستنداً إليها بظهره إن أمكن؛ وإذا اقترب أحد من هذه الحلقة سمع النداء: دوروا وجوهكم إلى المجلس.

وقد أحصى المقدسي في المسجد الجامع بالقاهرة وقت العشاء مائة وعشرة مجلساً من مجالس العلم.

وكان عدد الطلاب يعرف بإحصاء محابرههم التي يضعونها أمامهم والتي كانت أهم عتاد الطالب.

ولما قدم محمد بن جرير الطبري بغداد قصده الحنابلة، فسأله عن أحمد بن حنبل، وعن حديث الجلوس على العرش فقال: أما أحمد فلا يعد خلافه؛ فوثبوا ورموه بمحابرههم غاضبين. وكان إذا مات العالم كسر تلاميذه المحابر والأقلام، وطافوا في البلد نائحين مبالغين في الصياح؛ فلما مات الجويني، وكان خطيباً أيضاً؛ كسر منبره، واشتركت نيسابور كلها في حزن العلماء عليه، فلم تفتح الأبواب في البلد، ووضعت المناديل على الرؤوس عاماً بحيث ما اجتراً أحد على ستر رأسه.

وكان الطلبة يحضرون كتبهم في شيء يسمى قارورة.

وكان الإملاء فيما مضى من الزمان يعتبر أعلى مراتب التعليم، وكثيراً ما كان المتكلمون واللغويون في القرن الثالث الهجري يتبعون طريقة الإملاء خاصة، وقد أملى أبو علي القالي خمس مجلدات، وكان المستملي يكتب أول القائمة: (مجلس أملاه شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا).

وكان تغير طريقة التعليم سبباً في إيجاد نوع جديد من المؤسسات العلمية؛ ذلك أنه لما انتشرت طريقة التدريس نشأت المدارس، ولعل من أكبر الأسباب في ذلك أن المساجد لم يكن يحسن تخصيصها للتدريس بما يتبعه من مناظرة وجدل قد يخرج بأصحابه أحياناً عن الأدب الذي تجب مراعاته للمسجد؛ فالقرن الرابع هو الذي أظهر هذه المعاهد الجديدة التي بقيت إلى أيامنا. ويدل مجموع الأخبار التي انتهت إلينا على أن نيسابور كانت مهد هذه المعاهد، وكانت أكبر مراكز العلم في خراسان.

على أنه كان بنيسابور رجل من كبار الأئمة وأولي الرياسة، وهو أبو بكر البيهقي المتوفى عام (٤٢٩هـ=١٠٣٧م)، وقد بنى لأهل العلم مدرسة على باب داره، ووقف عليها جملة من ماله الكثير. وكان هذا الرجل من كبار المدرسين والمناظرين بنيسابور.

وكان المستملي في المجالس الكبيرة يجلس على مقعد مرتفع ليستنصت الحاضرين وليعيد

كلام المدرس حتى يسمعه من كان بعيداً عنه. وكان العالم يتدئ درسه بحمد الله والصلاة على نبيه بعد قراءة قارئ حسن الصوت شيئاً من القرآن ثم يدعو للبلد وللسامعين. وبعد أن يستنصت المستملي الناس يبدأ كلامه باسم الله وبالصلاة على النبي ﷺ؛ ثم يقول للمحدث: من أو ما ذكرت رحمك الله؟

على أن التحديث كان يعتبر نوعاً من العبادة يحتاج إلى آداب خاصة: فيستحب للمحدث قبل أن يجلس للحديث أن يتطهر ويتطيب ويسرح لحيته، وأن يجلس متمكناً بوقار، فإن رفع أحد الحاضرين صوته زجره، وعليه أن يقبل على الحاضرين كلهم.

وقد رويت لنا من القرن الرابع هذه الحكاية التالية: لما عزم الصاحب بن عباد على إملاء الحديث؛ وهو وزير، خرج يوماً متطلساً متحنكاً بزي أهل العلم فقال: قد علمتم قدمي في العلم، فأقروا له بذلك، وأنا متلبس بهذا الأمر، وجميع ما أنفقته من صغري إلى وقتي هذا من مال أبي وجدي، ومع هذا لا أخلو من تبعات أشهد الله وأشهدكم أنني تائب إلى الله من ذنب أذنبته؛ واتخذ لنفسه بيتاً أسماه بيت التوبة، ولبث أسبوعاً على ذلك، ثم أخذ خطوط الفقهاء بصحة توبته، ثم خرج وقعد للإملاء وحضر الخلق الكثير، وكان المستملي الواحد ينضاف إليه ستة، كل يبلغ صاحبه، فكتب الناس حتى القاضي عبد الجبار.

ويحكى عن الوزير أبي الحسن بن الفرات (المتوفى عام ٣١٢هـ=٩٢٤م) أنه كان يطلق للشعراء في كل سنة من سني وزارته عشرين ألف درهم رسماً لهم، سوى ما يصلهم به متفرقاً، وعند مديحهم إياه؛ فلما كان في وزارته الأخيرة تذكر طلاب الحديث، وقال: لعل الواحد منهم ييخل على نفسه بدائق ودونه ويصرف ذلك في ثمن ورق وحرير، وأنا أحق بمراعاتهم ومعاونتهم على أمرهم، وأطلق لهم من خزائنه عشرين ألف درهم.

وكان العالم إذا لم يكن فقيهاً صاحب منصب، ولم يجد ما يعيش منه، اشتغل بنسخ الكتب كما حكى عن أبي زكريا يحيى بن عدي المتوفى عام (٣٦٤هـ=٩٧٤م).

وقد قيل إن من آفات العلم خيانة الوراقين. وكان العلماء الذين يحرصون على سلامة العلم ينسخون كتبهم بأنفسهم إن استطاعوا. ولم تكن حرفة التعليم تدر شيئاً كثيراً.

وفي سنة (٣٤٦هـ=٩٥٧م) توفي أبو العباس الأصم، وكان من أكبر علماء خراسان ومحدثيهم؛ وقد ظهر به الصمم وهو ابن ثلاثين سنة، ثم استحکم حتى كان لا يسمع نهيق

الحمار، وكان إذا ذهب إلى المسجد للتحديث وجد السكة قد امتلأت بالناس، وكانوا يقومون له ويحملونه على عواتقهم إلى مسجده. وكان لا يأخذ شيئاً على التحديث، وإنما كان يورق ويأكل من كسب يده.

وحكي عن أبي بكر الجوزقي محدث نيسابور (المتوفى عام ٣٨٨هـ=٩٩٨م) أنه قال: (أنفقت في الحديث مائة ألف درهم ما كسبت به درهماً).

أما إذا كان أحد معلم صبيان أو معلم كتاب، فمعنى هذا عيش مر وحرقة محتقرة. ولعل كثيراً مما لحق المعلمين من ضروب الاستهزاء إنما يقع إثمه على الروايات اليونانية الهزلية؛ لأن المعلم فيها كان من الشخصيات المضحكة.

وكان يدفع للمعلم أجره أحياناً عدا المال أشياء مما يأكله الناس وينتفعون به، ولذلك كانت (رغفان المعلم) مثلاً يضرب في الاختلاف وشدة التفاوت، لأن "رغفان المعلم" تختلف بحسب اختلاف آباء الصبيان في الغنى والفقر، والجود والبخل^{٣٦}.

أما المعلمون الذين يؤدبون الأولاد في البيوت الغنية فكانوا أحسن حالاً.

وفي سنة (٣٠٠هـ=٩١٢م) احتفل أبو القاسم بن الوزير الخاقاني بدخول ابنه الكتاب، فدعا من القواد والرؤساء جماعة بلغوا ثلاثين نفساً، وأمر الداعي بإعطاء المعلم ألف دينار؛ وأكرم الناس، وأكلوا.

وكان العلماء الكبار يأخذون أرزاقاً من السلطان، وكانوا فريقين: فقهاء وعلماء؛ وثم فريق ثالث أكثر رزقاً، وهم الندماء الذين يجالسون الحضرة؛ وكان البعض يأخذ رزقاً في هذه الطوائف كلها، كالزجاج المتوفى عام (٣١٠هـ) فقد كان له رزق في الندماء ورزق في الفقهاء ورزق في العلماء، ومبلغ ذلك ثلاثمائة دينار، وكانت له منزلة عظيمة. وقد أجرى الخليفة المقتدر على ابن دريد المتوفى عام (٣٢١هـ) خمسين ديناراً في كل شهر حينما قدم بغداد فقيراً. وكذلك أجرى سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب على أبي نصر الفارابي الفيلسوف التركي المتوفى عام (٣٣٩هـ=٩٥٠م) أربعة دراهم كل يوم، فاقصر عليها.

وأخيراً دخل علماء الإسلام في نهاية هذا العصر في جملة العظماء وأصحاب الألقاب،

^{٣٦} - هذا على خلاف الإسلام الذي جعل للمعلم منزلة رفيعة كما يدل قصة الإمام الحسين t مع معلم ولده، بالإضافة إلى ما دل على فضل التعليم.

وكان الأسفراييني الأصغر المتوفى عام (١٠٢٧هـ=١٠٢٧م) بنيسابور أول من لقب بين العلماء (بركن الدين). وفي ذلك العصر ظهر لقب على سبيل التكريم وهو لقب (شيخ الإسلام) الذي صار له شأن كبير فيما بعد، وكان ظهوره عند فريقين مختلفين، وذلك أن أهل السنة في خراسان لقبوا به أحد علمائهم، فثارت نفوس المجسمة بمدينة هرات وعمدوا إلى شيخ لهم ألف كتاباً في ذم الكلام فلقبوه به.

وقد أثرت في عقل الجوهرى صاحب المعجم المشهور (المتوفى عام ٣٩٠هـ=١٠٠٠م) كثرة عمله، فقد صنف كتاب الصحاح في اللغة حتى وصل إلى باب الضاد، ثم اعترته وسوسة، فانتقل إلى الجامع القديم بنيسابور، فصعد إلى سطحه وقال: أيها الناس اني عملت في الدنيا شيئاً لم أسبق إليه، فسأعمل للآخرة شيئاً لم أسبق إليه، وضمّ إلى جنبه مصراعى باب وتأبطهما بجبل، وصعد مكاناً عالياً من الجامع وزعم انه يطير، فوقع فمات.

علوم الدين

القرن الرابع الهجري مر علم الكلام الإسلامي أو علم العقائد في أهم أدوار حياته. ومن جهة أخرى كان الصوفية خصوماً ألداء لجميع الفقهاء، ولم يقنعوا قط من التشنيع عليهم؛ وقد عبروا عن احتقارهم لعلم الفقه الذي يسمونه علم الدنيا تعبيراً قاسياً؛ ومن أمثلة ذلك ما يقوله المكي (المتوفى عام ٣٨٦هـ = ٩٩٦م) أخذاً عن السيد المسيح t؛ فهو يقول: وروينا عن عيسى t: (مثل علماء سوء مثل صخرة وقعت على فم النهر، لا هي تشرب الماء، ولا تترك الماء يخلص إلى الزرع؛ وكذلك علماء الدنيا قعدوا على طريق الآخرة، فلا هم نفذوا، ولا تركوا العباد يسلكون إلى الله عز وجل؛ قال: ومثل علماء سوء كمثل قناة الحش، ظاهرها حسن وباطنها نتن، ومثل القبور المشيدة ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى).

وقد انتصر الصوفية في هذا الباب؛ ففي القرن التالي جاء الغزالي إمام جمهور المسلمين المتأخرين، فجاهر بأن علم الفقه علم دنيوي لا ديني.

ونجد بين الصوفية طوائف كثيرة ترفض العلوم جملة، حتى أنه يحكى عن أبي عبد الله بن خفيف المتوفى عام (٣٧١هـ=٩٨١م) أنه كان يوصي الناس بأن يشتغلوا بالعلم ولا يغتروا بكلام الصوفية.

وقد زاد الإقبال على دراسة القرآن والحديث، لأن ذلك واجب من أول الواجبات المفروضة على كل مسلم ومسلمة. ولكن نشأ في القرن الرابع رسم جديد، وهو الذي يجيز للإنسان رواية الحديث من غير لقاء رجاله، ومن غير إجازة مكتوبة تخوله حق الرواية؛ وبهذا حلت دراسة الكتب محل الأسفار التي كان يقوم بها طلاب الحديث من قبل لقاء رجاله. وقد استطاع ابن يونس الصفدي المتوفى عام (٣٤٧هـ=٩٥٨م) أن يكون إماماً متيقظاً حافظاً في الحديث، وإن كان لم يرحل، ولا سمع بغير مصر. وكان مثل العالم الذي يطلب بالحديث مثل التاجر أو عامل السلطان في كثرة غشيانه للخانات التي يأوي إليها المسافرون أو في طوافه في السكك؛ وهذا بقي شأنه في الحركة والتجوال زماناً طويلاً.

وفي سنة (٣٩٥هـ = ١٠٠٥م) توفي ابن مندة (خاتمة الرحالين) الذين رحلوا لسماع الحديث؛ وقد جمع ألفاً وسبعمائة حديث، ورجع إلى وطنه ومعه أربعون قرأ من الكتب. ويقول أبو حاتم السمرقندي (المتوفى عام ٣٥٤هـ = ٩٦٥م): لعننا كتبنا عن ألف شيخ ما بين الشاش والإسكندرية. ويروى عن أبي يعقوب السرخسي (المتوفى عام ٤٢٩هـ = ١٠٣٧م) أنه طلب الحديث فأكثر، حتى زاد عدد شيوخه على ألف ومائتي شيخ. على أن الغزالي على شهرته ومع أنه صار أكبر حجة للعلم عند أهل القرون التي جاءت بعده، لم يسافر في طلب العلم إلا قليلاً: فقد خرج من بلده طوس، وسمع بجرجان في الشمال، ودرس في نيسابور، وكانت أكبر مدينة علمية في بلاده؛ وهذا كل ما عرف من أسفاره لطلب العلم. على أن المحدثين كانوا يعتبرون أكبر العلماء شأنًا؛ وكان يعدون من أعظم رجال الإسلام، ولا يفوت المؤرخين ذكر وفاتهم إلى جانب القليلين الذين يختارون ذكرهم؛ وهم يقصون الحكايات العجيبة التي تدل على مقدرتهم في الحفظ. فيحكى أن عبد الله بن سليمان بن الأشعث (المتوفى عام ٣١٦هـ=٩٢٨م) كان محدث العراق، وكان يحدث في دار الوزير علي بن عيسى، وقد نصب له السلطان منبراً حدث عليه؛ وقد خرج إلى سجستان فسأله أهلها أن يحدثهم فقال: ما معي أصل، فقالوا: ابن أبي داود وأصول! فأملئ عليهم من حفظه ثلاثين ألف حديث، فلما قدم بغداد، قال البغداديون: مضى ابن أبي داود إلى سجستان ولعب بالناس، ثم فيجوا فيجاً دنانير إلى سجستان لتكتب لهم النسخة فكتبت، وجيء بها وعرضت على الحفاظ فخطأوه في ستة أحاديث لم يكن أخطأ إلا في ثلاثة منها.

أما من حيث السرعة في تعلم الحديث فنستطيع معرفة ذلك مما حكي عن الخطيب البغدادي أنه قرأ صحيح البخاري على كريمة احمد المروزي في خمسة أيام. وكذلك ظهرت في القرن الرابع كتب جديدة تعالج تصحيفات الحديث، ومنها كتب للخطيب وللددار قطني.

وقد اعتنى نقاد الحديث منذ أول الأمر بمعرفة رجال الحديث وضبط أسمائهم والحكم عليهم بأنهم ثقات أو ضعفاء، ثم نظروا في الأساس الذي ينبنى عليه هذا الحكم، أعني الصفات التي يجب توفرها في المحدث الثقة، وهو ما يعرف بالجرح والتعديل. وقد أدت بهم حاجتهم إلى السند المتصل أن يتجاوزوا البحث في حياة الرواة والحكم عليهم، إلى عمل تاريخ كامل لهم؛ وهكذا وجدت (تواريخ) القرن الثالث الهجري مثل تاريخ البخاري المتوفى عام (٢٥٦هـ = ٨٧٠م)، ومثل الطبقات الكبرى لابن سعد المتوفى عام (٢٣٠هـ = ٨٤٥م) التي روعي في تأليفها الزمان والمكان.

وكذلك ظهرت تواريخ المدن، وهي المؤلفات التي ظهرت في القرنين الثالث والرابع للهجرة، وتمثل كما لها في تاريخ نيسابور الذي ألفه النيسابوري المتوفى عام (٤٠٦هـ = ١٠١٥م) والذي يرى السبكي أنه يشتمل على تراجم أوفى وأكمل من تراجم الخطيب البغدادي، وفي تاريخ أصفهان لأبي نعيم المتوفى عام (٤٣٠هـ = ١٠٣٨م)، وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي المتوفى عام (٤٦٣هـ = ١٠٧١م).

على أن الدراسات التاريخية لم تكن محمودة عند العلماء، ويحكي عن ابن إسحاق المتوفى عام (١٥١هـ = ٧٧٦م) أنه سأل أحد التلاميذ الذين يدرسون التاريخ مستهزئاً به: من الذي كان يحمل لواء الجالوت؛ أما الآن فيحكى لنا أبو القاسم الزنجي عن المحدثين الذين سمع منهم في أول القرن الرابع الهجري قصصاً تاريخية محضه مثل أخبار المبيضة، ومقتل حجر بن عدي زعيم الشيعة، وكتاب صفين، وكتاب الجمل ونحوها.

وكذلك وضعت الأصول التي يبنى عليها نقد الحديث وتكامل بناؤها في القرن الرابع، وأخذت مصطلحاتها من هذا العصر أيضاً.

قراء القرآن

أما الدور الثاني في الناحية العلمية الدينية فقد قام به مقرئو القرآن، ونجد أن المقدسي

مثلاً لا يغفل في كلامه عن البلاد التي وصفها عن ذكر أصحاب القراءات فيها. وقد قامت حوالي هذا الوقت خلافات شديدة حول قراءة القرآن، وتدخلت الحكومة، فاضطهدت بعض أصحاب القراءات؛ مثلاً ضرب الوزير أبو علي بن مقله ابن شنبوذ المتوفى عام (٣٢٨هـ=٩٣٩م) بالسوط واضطره أن يتبرأ من قراءات قرأ بها. وزعم العطار أن كل ما صح في العربية من كلمات توافق خط المصحف فقراءتها جائزة؛ وشاعت عنه هذه القراءات الغريبة، فأنكرها أهل العلم ووصل الأمر إلى السلطان، فأحضره واستتابه بحضرة القراء والفقهاء، فأذعن بالتوبة وكتب محضر بتوبته، وأثبت جماعة من الحاضرين خطوطهم في المحضر بالشهادة. وكما أن المذاهب الفقهية الأربعة حلت محل غيرها، فكذلك حلت الحروف السبعة الشرعية المتفق عليها محل القراءات الشاذة في القرن الرابع الهجري؛ وفي هذا القرن أيضاً ظهرت كتب فيما سمي بالقراءات الثمان.

التفسير

على أن جواز تفسير القرآن لم يكن أمراً مسلماً به في القرن الرابع دون استيفاء شروطه؛ فيحكى لنا الطبري (من أمثلة التحرج في ذلك) أن الشعبي مر على السدي، وهو يفسر القرآن فقال: (لأن يضرب على إستك بالطبل خير لك من مجلسك هذا).

ويخبرنا السمرقندي أن عمر بن الخطاب رأى في يد رجل مصحفاً وقد كتب عند كل آية تفسيرها، فدعى بمقراض فقرضه.

ونقل السيوطي عن الأصمعي مثلاً أنه كان شديد التأله، فكان لا يفسر شيئاً من القرآن ولا شيئاً من اللغة له نظير واشتقاق في القرآن، وكذلك الحديث تحرجاً.

على أن الطبري قد ذكر أمثلة على أن الصحابة، وخصوصاً ابن عباس، كانوا يفسرون القرآن تفسيراً محموداً.

وقد ألف أبو الحسن علي بن عيسى الرماني المتوفى عام (٣٨٥هـ = ٩٩٥م)، وهو عالم بالكلام والفقه والنحو واللغة، تفسيراً للقرآن؛ وقد بلغ من قيمة هذا التفسير أنه قيل

للساحب ابن عباد: هلا صنفت تفسيراً! فقال: وهل ترك لنا علي بن عيسى شيئاً؟ وكذلك ألف أبو بكر النقاش المعتزلي المتوفى ببغداد عام (٣٥١هـ = ٩٦٢م) تفسيراً يقع في اثني عشر ألف ورقة.

وكذلك صنف أبو بكر الإدفوي المصري المتوفى عام (٣٨٨هـ = ٩٩٨م) تفسيراً يقع في مائة وعشرين مجلد.

ولم يزد عليه في عظم التأليف إلا عبد السلام القزويني شيخ المعتزلة ببغداد المتوفى عام (٤٨٣هـ = ١٠٩٠م) فإنه ألف تفسيراً في ثلاثمائة مجلد منها سبعة مجلدات في الفاتحة.

ولما كانت كل فرقة من الفرق في هذا العصر تعتد بالقرآن وترجع إليه بحيث كان مصدرها الأكبر للاستشهاد ومستودعها الذي تتسلح به في أدلتها، فقد كان لا بد للقرآن، ككل كتاب مقدس، أن يتعرض لكثير من التكلف والتفسير.

أما المفسرون العلماء فكانوا على خلاف ذلك؛ ومنهم أبو زيد البلخي (المتوفى عام ٣٢٢هـ = ٩٣٤م) الذي تتلمذ للكندي ببغداد، وأخذ عنه الفلسفة والتنجيم والطب

وعلوم الطبيعة. كان البلخي يتنزه عما يقال في القرآن من تأويل بعيد ولا يقول إلا بالظاهر المستفيض من التفسير والتأويل؛ وقد بين ذلك في كتابه المسمى نظم القرآن. وكذلك كان لابد للغويين من التدقيق في الألفاظ، حتى أمكن وضع مصطلحات دينية خاصة تتميز عن اللغة المألوفة.

وقد كانت القصص القديمة العربية واليهودية والمسيحية المذكورة في القرآن ميداناً خاصاً لاختلاف ونزاع شديد.

أما المعجزات الوحيدة التي وجه العلماء إليها اهتمامهم، فيما عدا القرآن، فهي معجزات محمد (صلى الله عليه وآله)؛ وهي وإن لم ترد في القرآن، فقد ذكر في الأحاديث التي جمعت في القرن الثالث الهجري نحو المائتين منها^{٣٧}.

وقد حاول بعض العقليين أن يؤولوا هذه المعجزات؛ فمثلاً قالوا إن أبصار من اجتمع من قريش ليلة الدار للفتك بالنبي (صلى الله عليه وآله) لم تعم حقيقة، بل هم أعماهم الحقد والغیظ والغضب. ولم يكن إبليس هو الذي كلم المتأمرين ليعينهم بالرأي، بل هو رجل ممن يعمل بعمل إبليس فسمي بذلك.

وفي القرن الثالث الهجري كان أهل السنة ينظرون إلى المعتزلة بعين الكراهية والاحتقار؛ ثم خرج الأشعري حوالي آخر القرن الثالث على المعتزلة، بعد أن كان منهم، وبدأ يحارهم بسلاحهم.

ولكن الحنابلة كانوا يخاصمون الأشعري، فيقول ابن الجوزي إن الأشعري ظل معتزلياً دائماً.

وكان القاضي عبد الجبار بالري (توفي سنة ٤١٥ هـ = ١٠٢٤ م) في ابتداء حاله يذهب في الأصول مذهب الأشعرية، ثم انتقل إلى خصومهم . المعتزلة . وإليه انتهت الرياسة فيهم حتى صار شيخهم وعالمهم غير مدافع. وكان الصاحب بن عباد قد أحسن إليه وقدمه وولاه القضاء؛ فلما توفي الصاحب قال عبد الجبار: لا أرى الترحم عليه، لأنه مات من غير توبة ظهرت منه؛ فنسب عبد الجبار إلى قلة الوفاء.

ووقع بسبب تهيج الحنابلة قتال في الشوارع، واضطر القشيري المتوفى عام

^{٣٧} - ذكر بعضها في القرآن، وهي أكثر من المائتين بكثير. (م).

(٥١٤هـ = ١٢٠م) إلى ترك بغداد. ومن هذه الحادثة أرخ ابن عساكر مبدأ وقوع الانحراف بين الحنابلة والأشاعرة. ولم ينتشر مذهب الأشاعرة، وهو المذهب الكلامي الجديد الذي قدر له أن يصير مذهب جمهور المسلمين إلا انتشاراً بطيئاً في المملكة الإسلامية، ففي أقصى المشرق كان الماتريدية ينافسون الأشاعرة، وذلك على الرغم مما بين الفريقين من تشابه في أصل المذهب، وكان لابد للأشاعرة أيضاً أن يدرأوا هجمات الحنابلة الذين كان شيخهم (حوالي عام ٤٠٠هـ = ١٠١٠م) يلعن أبا الحسن الأشعري أمام الملاء وينال من الأشاعرة، وأن يقاوموا أيضاً هجمات الكرامية الذين تحزبوا على الأشاعرة، ورفعوا أمرهم إلى السلطان محمود بن سبكتكين مدعين أن الأشاعرة يعتقدون أن النبي (صلى الله عليه وآله) ليس نبياً اليوم وأن رسالته انقطعت بموته، ولم يكن هذا معتقداً للأشاعرة.

وكانت الحكومة في أوائل القرن الخامس الهجري تتدخل نوعاً من التدخل الرسمي لفض المنازعات المذهبية، ففي عام (٤٠٨هـ = ١٠١٧م) أصدر الخليفة القادر كتاباً ضد المعتزلة، فأمرهم بترك الكلام والتدريس والمناظرة في الاعتزال والمقالات المخالفة للإسلام، وأندرهم - إن خالفوا أمره - بحلول النكال والعقوبة.

وامتثل السلطان محمود في غزنة أمر أمير المؤمنين واستن بسنته في قتل المخالفين ونفيهم وحبسهم، أمر بلعنهم على المنابر، «وصار ذلك سنة في الإسلام».

وصدر في بغداد كتاب آخر سمي الاعتقاد القادري، وذلك في سنة (٤٣٣هـ = ١٠٤١م) وقرء في الدواوين، (وكتب الفقهاء خطوطهم فيه أن هذا اعتقاد المسلمين ومن خالفه فقد فسق وكفر)، وكان هذا أول اعتقاد رسمي يعلنه الخليفة، وكان معنى ذلك نهاية تطور علم الكلام.

وكان تسامح المسلمين في حياتهم مع اليهود والنصارى؛ وهو التسامح الذي لم يسمع بمثله في العصور الوسطى سبباً في أن لحق بمباحث علم الكلام شيء لم يكن قط من مظاهر العصور الوسطى، وهو علم مقارنة الملل.

المذاهب الفقهية

كان القرن الرابع أهم نقطة فاصلة في تاريخ التشريع الإسلامي؛ فيقال أنه في هذا القرن

وقف التكوين المستقل للتشريع الإسلامي المبني على الاجتهاد المطلق وعلى الحكم بالرأي في فهم القرآن والحديث.

ومضى عصر الابتكار في التشريع، واعتبر العلماء الأولون كالمعصومين، وأصبح الفقيه لا يستطيع إصدار حكمه الخاص إلا في المسائل الصغيرة؛ وهذا يشبه ما حدث عند اليهود من مجيء الربانيين الذين كان قصاراهم التناقش في آراء القدماء، وذلك بعد مضي عهد علماء الكتاب الذين يعلمون الكتاب ويحق لهم الاجتهاد.

وكان أهم المذاهب بين أصحاب الحديث: الحنابلة، والأوزاعية والثورية. ولم يكن الحنابلة في ذلك . خلافاً لما صار إليه الحال فيما بعد . يعتبرون من جملة الفقهاء، وفي سنة (٣٠٦هـ=٩١٨م) ذكر أصحاب المذاهب فكانوا: الشافعية والمالكية والثورية أصحاب سفيان الثوري، والحنفية والداوودية. وفي أواخر القرن الرابع كانوا: الحنفية والمالكية والشافعية والداوودية، ولم يذكر الحنابلة بين الفقهاء في هاتين المدينتين؛ ولما توفي محمد بن جرير الطبري عام (٣١٠هـ=٩٢٣م) دفن بداره ليلاً، لأن العامة اجتمعت ومنعت من دفنه نهاراً وكان ذلك بتأثير الحنابلة؛ وقد تعصب عليه هؤلاء، لأنه جمع كتاباً ذكر فيه اختلاف الفقهاء، ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل، فستل في ذلك فقال: لم يكن فقيهاً، وإنما كان محدثاً. ولم ينل الحنابلة الاعتراف بأنهم فقهاء إلا أخيراً^{٣٨}.

وقد أسس داوود الأصفهاني (المتوفى عام ٢٧٠هـ=٨٨٣م) مذهباً كان له شأن، وهو مذهب الظاهرية؛ وقد عظم شأن هذا المذهب في الشرق في القرن الرابع الهجري، وكان بين أتباعه كثير من أصحاب الجاه بإيران. وكان الداوودية بفارس يتقلدون الأعمال والقضاء، وكانت لهم الغلبة.

وقد أسس أبو جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ المتوفى عام (٣١٠هـ=٩٢٣م) مذهباً خاصاً به، وقد ظل الناس بعد موته عدة شهور يجتمعون للصلاة على قبره ليلاً ونهاراً. وكان للطبري صاحب يسمى ابن شجرة وتوفي سنة (٣٥٠هـ=٩٦١م)، وقد ناهز التسعين؛ وكان جريري المذهب، ثم خالف أستاذه وأصبح يختار لنفسه، ولا يضع

^{٣٨} - حوالي عام ٥٠٠هـ كما يقول الغزالي، انظر كتاب (اختلاف الفقهاء) لمحمد بن جرير الطبري، طبعة كرن (Kern)، مصر

(١٩٠٢م=١٣٢٠هـ)، ص ١٤.

لأحد من الأئمة أصلاً.

وبالإجمال استقرت المذاهب الفقهية الكبرى في ذلك العصر وتوطدت أركانها على النحو الذي نجاهه اليوم، ولم يبرز مذهب الإمام أحمد خارج العراق إلا في القرن الرابع الهجري. أما في بغداد فقد كان الحنابلة، دون سائر أهل السنة، أكبر من أقلق بال الحكومة؛ ثم إنهم اشتدوا في محاربة الشيعة ببغداد؛ وقد بنوا ببغداد مسجداً وجعلوه طريقاً إلى المشاغبة والفتنة؛ ثم عظم أمرهم حتى أرهجوا ببغداد، واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأوون إلى المساجد، وكانوا مثلاً في عام (٣٢٣هـ=٩٣٥م) إذا مر بهم شافعي المذهب أغروا به العميان فيضربونه بعصيتهم حتى يكاد يموت. ولكنهم ادخروا أشد غضبهم للشيعة، ولمن خاصمهم من المتكلمين؛ وكان الشافعية أشد الفقهاء قدرة على النظر والشغب، وهاتان الخصلتان من ضمن الخصال التي وصفهم بها المقدسي.

ولم تظهر المنافسة بين المذاهب في صورة شديدة إلا في القرن التالي عندما فنيت المذاهب الصغرى، وبقيت المذاهب الكبرى وحدها في ميدان الخلاف؛ عند ذلك قويت المنافسة، وصار أصحاب المذاهب يستعين بعضهم على بعض بالسلطان، خصوصاً في المشرق.

القضاة

لم يفكر المسلمون إلا قليلاً في المبدأ الذي يقضي بالفصل الأساسي بين السلطتين: القضائية والتنفيذية، وكان هذا أيضاً هو شأن أوروبا المسيحية حتى أحدث العصور. فقد كان النبي (صلى الله عليه وآله) هو القاضي الأعلى للمسلمين، وكذلك كان خليفته من بعده، وكان ولاته على البلاد يباشرون هذه السلطة بالنيابة عنه؛ ثم إن كثرة الواجبات تطلبت الاستعانة ببعض القضاة، كما يحكى عن المختار، فإنه كان يجلس للقضاء بنفسه، وقد نشط في ذلك وأحسن، حتى كثرت عليه الأعمال فاضطر إلى تعيين القضاة. ولهذا السبب نفسه لم يحدد اختصاص القاضي بالنسبة لاختصاص الوالي تحديداً دقيقاً. وقد احتفظ الوالي لنفسه بما كان يعجز عنه القاضي؛ وإذا لم يقبل الوالي حكم القاضي لم يكن أمام القاضي إلا أن ينصرف عن الحكم ويعتزل أو يجلس في منزله مضرِباً على الأقل.

وظل تعيين القضاة من حق الخليفة حتى في العصور السيئة، باعتبار أن القضاء آخر ما بقي من المناصب الهامة؛ ولما بويع للمستكفي عام (٣٣٣هـ = ٩٤٤م)، وجلس على عرش الخلافة، سأل عن القضاة وكشف عن أمر الشهود بالحضرة، فأمر بإسقاط بعضهم وقبول بعضهم.

وقد عظم شأن القضاة وقوي مركزهم منذ عهد الخلفاء الأولين من بني العباس، فقد كانت العادة أن الولاة يحضرون القضاة إلى مجالسهم؛ فلما قدم محمد بن مسروق الكندي قاضياً على مصر من قبل الرشيد عام (١٧٧هـ = ٧٩٣م) أرسل إليه الأمير عبد الله بن المسيب يأمره بحضور مجلسه، فقال: لو كنت تقدمت إليك في هذا لفعلت بك وفعلت يا كذا وكذا، فانقطع ذلك عن القضاة من يومئذ. بل نجد أن الآية قد انعكست في القرن الثالث الهجري، فكان الولاة يحضرون مجلس القاضي في كل صباح إلى أيام القاضي ابن حربويه عام (٣٢٩هـ = ٩٤١م)، فكان آخر من ركب إليه الأمراء، لأنه كان لا يقوم للأمير إذا أتاه.

وكان القاضي أبو حامد أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد الاسفرائيني قاضي بغداد المتوفى عام (٤٠٦هـ = ١٠١٥م) رفيع الجاه في الدنيا؛ وقد وقع من الخليفة ما أوجب أن كتب إليه الشيخ

أبو حامد: (اعلم أنك لست بقادر على عزلي عن ولايتي التي ولائها الله تعالى، وأنا أقدر أن أكتب إلى خراسان بكلمتين أو ثلاث أعزلك عن خلافتك).

ومما يدل على رهبة منصب القضاء واحترامه في ذلك العهد أننا نجد الأمراء والوزراء كثيراً ما يساقون إلى السجن، ولا يحكى مثل ذلك إلا عن قليل من القضاة، ولم يمت في أثناء السجن إلا قاض واحد.

على أن دوائر الفقهاء لم تكن من الناحية النظرية ترمق منصب القضاء بعين الرضا؛ ونجد الكلام في قبول القضاء وعدم قبوله يمتد حتى إلى القرن الرابع الهجري، ويقول السمرقندي المتوفى عام (٣٧٥هـ=٩٨٥م): اختلف الناس في قبول القضاء، قال بعضهم: لا ينبغي أن يقبل إذا كان يصلح لذلك الأمر. وقال بعضهم: إذا ولي رجل بغير طلب منه فلا بأس بأن يقبل إذا كان يصلح لذلك الأمر. وقد احتج من كره ذلك بأحاديث رويت عن النبي (صلى الله عليه وآله) من شأنها أن ترهب القضاة حتى العادل منهم.

وفي سنة (٧٠هـ=٦٨٩م) تولى قضاء مصر عبد الرحمن بن حجيرة، فلما بلغ أباه ذلك قال: (إنا لله وإنا إليه راجعون، هلك الرجل)، ويروى أنه قال: (هلك ابني وأهلك). ويحكى لنا من ورع المسلمين وخوفهم من ولاية القضاء أن أبا قلابة مثلاً دعي للقضاء، فهرب من العراق حتى أتى الشام، فوافق ذلك عزل قاضيها؛ فهرب واختفى حتى أتى بلاد اليمامة.

وقد حكى الطبري أن قوماً من أهل الحديث تحاموا حديث أبي يوسف القاضي من أجل غلبة الرأي عليه مع صحبة السلطان وتقلده القضاء.

وفي عهد الخليفة المهدي أُلزم قاضي المدينة ولاية القضاء بعد أن أشرف عليه والي المدينة بضرب السياط. وكان القاضي شريك قد ولي القضاء حوالي هذا العصر بعد تأب، وذهب إلى الصيرفي ليأخذ رزقه، فضايقه في النقد فقال له الصيرفي: إنك لم تبع به بزاً، فقال له شريك: بل والله بعت أكثر من البز، بعت به ديني.

بل يحكى عن بعض العلماء أنه أظهر الجنون هرباً من تولي منصب القضاء.

ويحكى لنا أبو طالب المكي أن إسماعيل بن إسحاق القاضي كان من علماء أهل الدنيا، ومن سادة الفضلاء وعقلائهم؛ وكان مؤاخياً لأبي الحسن بن أبي الورد، وكان هذا من أهل

المعرفة، فلما ولي إسماعيل القضاء هجره ابن أبي الورد، ثم إنه اضطر إلى أن دخل عليه في شهادة، فضرب ابن أبي الورد على كتف إسماعيل القاضي وقال: يا إسماعيل علم أجلسك هذا على كتف إسماعيل القاضي وقال: يا إسماعيل علم أجلسك هذا المجلس لقد كان الجهل خيراً منه؛ فوضع إسماعيل رداه على وجهه وبكى حتى بلّاه.

ولما صرف أبو عمرو بن عبد الواحد عن قضاء البصرة، وحل محله أبو الحسن ابن أبي الشوارب وذلك في عام (٣٩٩هـ = ١٠٠٩م) قال العصفري الشاعر:

عندي حديث ظريف بمثلـه يتغنى
فذا يقول: أكرهونا وذا يقول: اسـترحنا
ويكـذبان جميعاً فمن يصدق منا
وقد امتنع قاضي المدينة في عهد المهدي أن يأخذ رزقاً، لأنه لم يرد أن يصيب مالا من هذا المنصب الذي يكرهه.

ولما ولي قضاء القضاة ببغداد محمد بن صالح بن أم شيبان الهاشمي في سنة (٣٦٣هـ = ٩٧٢م) وكان يتفقه لمالك، اشترط عند تولي منصبه شروطاً منها ألا يتناول على القضاء أجراً، ولا يقبل شفاعاً في فعل مالا يجوز، ولا في إثبات حق، ولا يغير ملبوسه. وفي سنة (٣٣٤هـ = ٩٤٥م) كبس اللصوص دار أحد القضاة ببغداد، وأخذوا جميع ما كان في منزله ولم يكن شيئاً مذكوراً، لأنه كان مشهوراً بالفقر؛ وكانوا يقدرّون أن للقاضي مالا، فضربوه ليستخرجوه منه، فهرب إلى السطوح ورمى بنفسه إلى ما جاوره فسقط فمات. وفي سنة (٣٥٢هـ = ٩٦٣م) تقلد أبو بشر عمر بن أكثم القضاء ببغداد، على ألا يأخذ رزقاً.

وكان للقاضي أبي الطيب الطبري عمامة وقميص بينه وبين أخيه، إذا خرج ذاك قعد هذا في البيت، وإذا خرج هذا احتاج ذلك أن يقعد.

وكان أبو بكر محمد بن المظفر الشامي قاضي قضاة بغداد المتوفى عام (٤٨٨هـ = ١٠٩٥م) زاهداً ورعاً؛ وقد شرط عند تولي القضاء ألا يأخذ رزقاً؛ وكان له كراء بيت قدره في الشهر دينار ونصف، وكان من ذلك قوته، وكان له عمامة من الكتان وقميص من القطن الخشن؛ وكان له كيس يحمل فيه فتيت الخبز، فإذا أراد الأكل جعل من الفتيت في قصعته، ووضع عليه قليلاً من الماء وأكل منه.

وقد كان القاضي توبة بن نمر الحضرمي المتوفى عام (١٢٠هـ=٧٣٨م) أول قاض بمصر وضع يده على الأحباس؛ وإنما كانت الأحباس في أيدي أهلها وأيادي أوصيائهم، فأراد توبة أن يضع يده عليها حفظاً لها، فلم يمت حتى صارت الأحباس ديواناً عظيماً. ولم يدخل في اختصاص القاضي النظر في الموارث بصورة نهائية إلا في القرن الرابع الهجري، ثم صار إليه أخيراً الإشراف على سجون البلاد التي يلي قضاءها، واختص القضاة من ذلك بما سمي (حبوس القضاة)، وهي الخاصة بمن يجبس لدين عليه، وذلك في مقابل (حبوس المعونة) التي يجبس فيها أصحاب الجنايات.

وكانت عادة المتحاكمين أن يتقدموا للقاضي برقاع في الرقعة منها اسم المدعي واسم خصمه وأبيه؛ وكان الكاتب يأخذ هذه الرقعة عند باب المسجد قبل مجيء القاضي، ولا يزال يأخذها حتى يحضر القاضي، وإذا كانت الرقاع كثيرة لا يقدر القاضي أن يدعو بها كلها في يوم، فرقها في كل يوم خمسين رقعة أو أكثر من ذلك على قدر طاقته في الجلوس والصبر.

وكانت جلسات القاضي للحكم علنية؛ وقد خصم رجل المأمون مرة، وأذن المأمون للقاضي يحيى بن أكثم في القضاء بينهما في دار الخلافة؛ فقال القاضي: فيأني أبدأ بالعامّة أولاً ليصح المجلس للقضاء، ثم أمر بفتح الباب وقعد في ناحية من دار الخلافة، وأذن للعامّة في الدخول ونادى المنادي وأخذ الرقاع ودعا بالناس، ثم قضى بين الخليفة وخصمه.

ومن أجل أن جلسات القضاء كانت علنية، فقد كان القاضي في أول الأمر يجلس في مكان لا يمنع أحد من المسلمين من الدخول إليه، وهو المسجد الجامع حيث كان يجلس مستنداً إلى أسطوانة من أساطين المسجد؛ وكذلك كان القاضي يجلس أحياناً للقضاء في داره، ويحكى عن خير بن نعيم الذي تولى قضاء مصر عام (١٢٠هـ=٧٣٨م) أنه كان له مجلس يشرف على الطريق على باب داره، فكان يجلس فيه فيسمع ما يجري بين الخصوم من الكلام.

ولما ولي القاضي هارون بن عبد الله قضاء مصر سنة (٢١٧هـ=٨٣٢م) جعل مجلسه في الشتاء في مقدم المسجد، واستدبر القبلة، وأسند ظهره بجدار المسجد، واتخذ مجلساً للصيف في صحن المسجد وأسند ظهره للحائط الغربي.

وكان المتحاكمون إلى القاضي في العصر الأول يسطون قضيتهم وهم وقوف بين يديه،

وقد أتى الأمير الأموي عبد الملك بن مروان النصيري إلى القاضي خير بن نعيم يخاصم ابن عم له فقعد على مفرش القاضي، فقال له القاضي: قم مع ابن عمك، فغضب الأمير، وقام ولم يخاصم.

ثم صار الرسم أن يجلس المختصمون بين يدي القاضي صفّاً متساوين^{٣٩}. وقد وقع بين أم المهدي وبين أبي جعفر المنصور خصومة؛ فقالت: لا أرضى إلا بحكم غوث بن سليمان، وكان هذا قاضياً على مصر من قبل المهدي؛ فحمل إلى العراق للحكم بينهما، فوكلت أم المهدي عنها وكيلاً جلس أمام القاضي فطلب القاضي من الخليفة أن يساوي خصمه في مجلسه فانخط عن فرشه، وجلس مع الخصم؛ وبعد النظر في القضية حكم القاضي لأم المهدي على الخليفة.

وقد تعرض أهل النظر للبحث في جميع الأمور الصغيرة التي قد تؤثر على عدالة القاضي. وكذلك شدد أهل العدالة على القاضي في ألا يؤثر على المتخاصمين أقل تأثير، فلا يصيح على أحدهم ليستخرج منه الإجابة التي يريدونها.

ومنذ عهد الخليفة المنصور ظهر أكبر ما استلقت النظر في النظام القضائي، وهو إيجاد جماعة من الشهود، الدائمين أمام القاضي، ويخبرنا الكندي وهو مؤرخ ثقة، عن نشأة الشهود، فيقول: كان القضاة إذا شهد عندهم أحد، وكان معروفاً بالسلامة، قبله القاضي، وإن كان غير معروف بها أوقف، وإن كان الشاهد مجهولاً لا يعرف سئل عنه جيرانه، فما ذكروه من خير أو شر عمل به^{٤٠}.

ونجد في عهد القضاء في كتاب الخراج لقدماء بن جعفر: إن التثبت في شهادة الشهود والمبالغة في المسألة عنهم، والفحص عن وجوه عدالتهم، والبحث عن حالاتهم، من أهم واجبات القاضي، وكان ينوب عن القاضي شاهد في كل محكمة من المحاكم الخمس الصغرى ليحكم فيها باعتباره قاضياً مستقلاً يحكم في القضايا الصغيرة.

وقد أوصى الخليفة الطائع في عهده لقاضي القضاة أبي محمد بن معروف، وهو العهد الذي كتبه الصابي في (٣٦٦هـ = ٩٧٦م)، وصية متكررة بالإكثار من تلاوة القرآن، وأن

^{٣٩} - في زمن الرسول (صلى الله عليه وآله) وأمير المؤمنين علي t لم تكن العادة وقوف الخصوم، وإنما حدث هذا في ما بعد.(م)

^{٤٠} - روي هذا عن رسول الله (صلى الله عليه وآله).

يتخذ إماماً يهتدي بآياته، وبالمحافظة على الصلوات في أوقاتها، وبالجلوس للخصوم، وفتح بابه لهم على العموم، وأن يوازي بين الفريقين المتحاكمين إليه، ولا يحابي ملياً على ذمي، وأمره بالقصد في مشيئته، وبالغض من صوته، وحذف الفضول من لفظه، وأن يخفف من حركاته ولفظاته، ويتوفى من سائر جنباته وجهاته، وأن يستصحب كاتباً درياً بالمحاضرات والسجلات، ماهراً في القضايا والحكومة غير مقصر عن القضاة المستورين والشهود المقبولين في طهارة ذيله ونقاء جيبه، وحاجباً سديداً رشيداً لا يسف إلى دنيئة، ولا يقبل رشوة، ولا يلمس جعلاً، وخلفاء يرد إليهم ما بعد من العمل عن مقره، وأعجزه أن يتولى النظر فيه بنفسه، وجعل لكل من هذه الطوائف رزقاً يكفه ويكفيه، وأن يبحث عن أديان الشهود ويفحص عن أمانتهم؛ وأمره أن يضبط ما يجري في عمله من الوقوف الثابتة في ديوان حكمه، ويحتاط على أموال الأيتام ويسندها إلى أعف وأوثق القوام؛ وأمره إن ورد عليه أمر يعييه الفصل فيه أن يرده إلى كتاب الله، فإن وجد فيه الحكم وإلا ففي السنة، فإن أدركه وإلا استفتى ذوي الفقه والفهم وأهل الدراية، وأمره ألا ينقض حكماً حكم به من كان قبله إلا إذا كان خارجاً عن الإجماع وأنكره جميع العلماء، عند ذلك ينقضه نقضاً يشيع ويذيع.

وهذا الإجماع الذي ينعقد من جماعة العلماء الذين لا يخضعون لسلطة أخرى هو المحكمة الإسلامية العليا، وهؤلاء العلماء الذين يبدون رأيهم في ميدان الأحكام القضائية الهامة هم المظهر الذي أثبتت فيه الديمقراطية الإسلامية وجودها، لأن الحكم الأعلى هنا يصدر عن جماعة المسلمين.

ونجد في صور المخاطبات التي ترجع إلى أوائل القرن الرابع الهجري أنه كان بمصر قاض واحد، وأن فارس والأهواز كانا يجمعان لقاض واحد. وكان القاضي عبد الجبار قاضي قضاة بني بويه يجمع بين قضاء الري وهمدان والجبال. وكان قاضي مكة في سنة (٣٣٦هـ=٩٤٧م) له قضاء مصر وغيرها. وفي عهد الفاطميين كان ربما جمع قضاء الديار المصرية وأجناد الشام وبلاد المغرب لقاض واحد. ونجد في العهد الذي كتب لقاضي القضاة محمد بن صالح الهاشمي سنة (٣٦٣هـ=٩٧٤م) ما يجعله قاضياً على المملكة الإسلامية كلها تقريباً من البلاد الواقعة غرب جبال فارس إلى مصر، وكان تحتها حكام في البلاد عهد إليه في تصفح أحوالهم واستشراف ما يجري من الأحكام في سائر النواحي.

وكان هناك إلى جانب القضاء النظر في المظالم، وكان الناظر في المظالم ينظر في كل (حكم يعجز عنه القاضي، فينظر فيه من هو أقوى منه يداً). وكان القضاء والنظر في المظالم يقومان جنباً لجنب في جميع البلاد الإسلامية. ولكن اختصاص كل من هذين القضاءين لم يحدد تحديداً دقيقاً؛ وكانت المسألة الهامة دائماً هي هذه: أيهما أقوى: سلطان الإسلام الذي يمثله القاضي، أم السلطة الدنيوية؟

وكانت الأمور المتعلقة بالحدود تقدم إلى صاحب المظالم. وكان القاضي أحياناً ينظر في المظالم، وكان قاضي القضاة بنوع خاص ينظر في المظالم بدار السلطان، وكان الوزير هو الذي يعين أصحاب المظالم في البلاد.

وقد حاول رجال الشرع مرتين في القرن الرابع الهجري أن يشرفوا على أعمال الشرطة؛ ففي سنة (٣٠٦هـ=٩١٨م) أمر الخليفة المقتدر يماً الطولوني صاحب الشرطة ببغداد بأن يجلس في كل ريع من الأرباع فيها يسمع من الناس ظلاماتهم، ويفتي في مسائلهم حتى لا يجري على أحد ظلم؛ فكان هؤلاء الفقهاء بمثابة أصحاب الشرطة من الفقهاء يشرفون على أعمال الشرطة لتكون مطابقة لفتواهم.

وكذلك نصب الخليفة الحاكم بمصر في الشرطة وفي كل بلد شاهدين من العدول، وأمر ألا يقام على ذي جريمة أو مرتكب جريمة حد إلا بعد أن يصح عند ذينك الشاهدين أنه مستوجب لذلك.

وقد حدث حوالي سنة (٤٣٠هـ=١٠٣٩م) أن مات رجل بمصر وترك مالاً جزيلاً، ولم يخلف سوى بنت واحدة؛ فورثت جميع المال، وتناول الناس لتزوجها لكثرة مالها، ومن جملتهم القاضي عبد الحاكم ابن سعيد الفارقي؛ فامتنعت عليه، فحنق عليها، وأقام أربعة شهود بأنها سفيهة، وأخذ مالها؛ فهربت إلى الوزير، وعرفته بما فعله القاضي، فعمل محضراً برشدها وأشهد عليه، وأمر بإحضار القاضي؛ فأحضر مهاناً، وأخذ المال منه، وأنيب ولده عنه في الأحكام، ولزم داره فلم يخرج منها؛ ثم قبض الوزير على الشهود الذين شهدوا بسفهاها، فأودعهم السجن، وخلع على من شهد لها بالرشد.

وقد داوم أحمد بن طولون صاحب مصر النظر في المظالم بكل عناية، حتى استغنى الناس عن القاضي، وحتى كان القاضي ربما نعس في محله، ثم انصرف إلى منزله ولم يتقدم إليه أحد.

ولم يكن في مصر قاض في ذلك العهد سبع سنين، فكان كل شيء يرد إلى الناظر في المظالم. وكذلك كان كافور الإخشيدي الأسود يجلس للمظالم حتى كان القاضي كالمحجور عليه لكثرة جلوس كافور للمظالم.

وكانت الظالمات تقدم مكتوبة، وكان يحدث أحياناً حوالي عام (٣٢٠هـ=٩٣٢م) أن ترمى الرقعة في ورق المظالم أمام القاضي في المجلس.

وكانت الأحكام تصدر مكتوبة، وقد جرت بعض هذه التوقيعات مجرى النصوص الأدبية المشهورة التي تؤثر لحسنها.

وكان يخصص في دار الخلافة يوم في الأسبوع لسماع المظالم. وفي عصر الخليفة المأمون مثلاً خصص يوم الأحد للنظر في المظالم. وكان أحمد بن طولون بمصر يجلس لذلك يومين في الأسبوع. وكان الإخشيدي يجلس للمظالم كل يوم أربعاء؛ وبعده كان كافور يجلس كل سبت، ويحضر عنده الوزير وسائر الفقهاء والقضاة والشهود ووجوه البلد. وأول من جلس من الخلفاء المهدي وآخيه المهدي (٢٥٥. ٢٥٦هـ=٨٦٩. ٨٦٨م).

علم اللغة

فتح القرن الرابع الهجري فتحاً جديداً في كل من الناحيتين الرئيسيتين لعلوم اللغة العربية، وهما: النحو، وعمل المعاجم.

كان هؤلاء العلماء المتقدمون يضعون معارفهم بعضها إلى جانب بعض، مفككة لا رباط بينها، وكان اهتمامهم ينصب على الجزئيات: على حادثة واحدة، أو صورة من صور التعبير واحدة، أو كلمة واحدة، كما نجد ذلك في كتاب المبرد (المتوفى عام ٢٨٥هـ=٨٩٨م)، بل في كتب القالي (المتوفى سنة ٣٥٦هـ=٩٦٧م) وهي كتب مؤلفة من علوم اللغة ومن القصص والتاريخ، وكان أبو عمر محمد بن عبد الواحد اللغوي المعروف بـغلام ثعلب (توفي سنة ٣٤٥هـ=٩٥٦م) يجعل كلامه بحسب أسئلة الحاضرين. فمثلاً كان يسأله بعضهم: أيها الشيخ ما القنطرة عند العرب؟.

أما أئمة اللغة في القرن الرابع الهجري فقد شعروا بالحاجة إلى منهج يسيرون عليه، وإلى

تناول مادة بحثهم على طريقة منظمة.

وكذلك ظهرت في القرن الرابع دراسة جدية للاشتقاق اللغوي، وبقيت عصاراً طويلاً، وكان أستاذ هذه الدراسة ابن جني الموصلية (المتوفى عام ٣٩٢هـ=١٠٠٢م). وكانت أمه جارية رومية، وهو الذي ينسب إليه ابتداء مبحث جديد في علم اللغة، وهو المسمى باشتقاق الأكبر، وهو البحث الذي لا يزال يؤتي ثمره إلى اليوم، والذي يختص بمادة الكلمة دون هيئتها؛ ولم يكن لعلماء اللغة من العرب إنتاج أعظم من هذا.

الأدب

إن اختلاط دم الأمة العربية ونضوب قوة الطبقة العليا فيها، التي كانت بيدها القيادة، وبروز الشعوب الشرقية القديمة التي كانت تتألف من أجناس مختلطة، كل هذه تتجلى أوضح ما تكون في الأدب، وأخذت الأساليب البدوية الخشنة تفسح المجال للعبارات اللينة، ومال الناس إلى الأوزان القصيرة ميلاً ندهش له.

وأصبح ميل الشعراء إلى أن يبعثوا في النفوس ما يرفعها إلى آفاق الحياة القوية أقل من ميلهم إلى أخذ ألباب الناس بمادة جديدة للأدب، وبمعان دقيقة وعبارات وأخيلة جميلة.

١ . النشر

كان التقدير والإجلال للكلام المنثور، إلى جانب تقدير الشعر، ذلك التقدير الذي هو مبدأ كل نثر جيد، أكبر فضيلة للعرب القدماء؛ وهم قد فاقوا في ذلك جميع الشعوب، فكان في كل قبيلة خطباء إلى جانب الشعراء يساؤونهم في المكانة.

وقد بلغ من شدة تقدير الناس للفظ الحسن أنه أصاب أهل مكة سنة (٢٠٨هـ=٨٢٣م) سيل مات بسببه خلق كثير، فكتب والي المدينة إلى الخليفة المأمون طالباً عطفه ومعونته لمن جرف السيل أموالهم وهدم بنايتهم؛ فأنفذ إلى أهل مكة أموالاً كثيرة، وكتب مع ذلك كتاباً حسن العبارة، فكان كتابه أسر إلى أهل مكة من الأموال التي أنفدها إليهم

وكذلك كان وصف حياة المدن من الموضوعات التي أحب الجاحظ معالجتها. وهذا الأديب (المتوفى عام ٢٥٥هـ=٨٦٩م) والذي يحكي الكثير من الحكايات الطريفة عن دمامة

خلقته . كانت عيناه جاحظتين، وكان جده أسود . هو أبو النثر العربي الجديد ويعتبره الثعالبي أول كتاب النثر .

على أن المسيحيين الذين دخلوا في الإسلام وكان لهم الشأن الأكبر في ذلك العهد كانوا قد ألفوا إستعمال السجع في مواعظهم الدينية؛ وكذلك يظهر أنه حوالي منتصف القرن الثالث الهجري دخل السجع عند المسلمين في الخطب الرسمية، ونجد كثيراً منه في كتاب وجهه الخليفة للمسلمين، وإن لم يكن كله مسجوعاً^{٤١} .

ورسائل القرن الرابع الهجري هي أدق آية من ازدهار الفن الإسلامي؛ ومادتها هي أنفس ما عاجلته يد الفنان، وهي اللغة؛ ولو لم تصل إلينا آيات الفن الجميلة التي صنعتها أيدي الفنانين في ذلك العهد من الزجاج والمعادن لاستطعنا أن نرى في هذه الرسائل مبلغ تقدير المسلمين للرشاقة الرقيقة، وامتلاكهم لخاصية البيان في صورته الصعبة، وتلاعبهم بذلك تلاعباً؛ وليس من محض الاتفاق أن كثيراً من الوزراء في ذلك العهد كانوا من أساتذة البيان وأعلامه، ولذلك استطاعت رسائلهم أن تنال من التقدير ما جعلها خليقة أن تنشر كتباً للناس .

٢ . الشعر

كانت مدن العراق الكبرى مهداً لشعر المحدثين؛ أما قائدهم فيعتبر بشار بن برد الذي نشأ بالبصرة، وتوفي عام (١٦٨ هـ = ٧٨٤ م) .

وكان أبوه طياناً يضرب اللبن، وقد ولد بشار أعمى، على أن بشاراً قصد بغداد وأنشد قصائده أمام الخليفة المهدي؛ ويقال إنه ألف اثني عشر ألف قصيدة من الشعر، وهو من أحسن ما يؤثر^{٤٢} .

ومن شعر بشار الذي يعتبر (مستحدثاً) ومثالاً للمعاني المبتكرة والشعر الجيد قوله في وصف حبه، وهو المكفوف البصر، لصوت امرأة تكلمت معه:

٤١ - بل نجد هذا أكثر ما يكون في كلام الرسول (صلى الله عليه وآله) وأمير المؤمنين علي t .

٤٢ - وقد قتل بشار، وهو يناهز الستين أو نيف على السبعين؛ وقد نكبه الدهر بفقد جميع أصدقائه قبل ذلك. وقد قال في أشعاره إنه لم يبق إلا الناس الذين لا يعرفون ما هو الكلام؛ وقد ذم المهدي، فسعي به إليه، وقيل له إنه زنديق؛ فأمر بضره ضرب التلف حتى مات؛ فألقيت جثته بالبطيحة، فحملة الماء إلى = دجلة البصرة؛ فأخذ ودفن، وأخرجت جنازته فما تبعها أحد إلا أمة له سواد سندي عجماء ما تفصح؛ رؤيت تسير خلف جنازته وتصيح: وا سيدها وا سيدها .

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحياناً
قالوا: بمن لا ترى تهذي، فقلت الأذن كالعين توفي القلب ما كانا
وهو يزيد هذا المعنى بساطة ودقة في صورة أخرى له، حيث يقول:

قالت عقيل بن كعب إذ تعلقها قلبي، وأمسى به من حبها أثر:
أتى، ولم ترها، تهذي! فقلت لهم: إن الفؤاد يرى ما لا يرى البصر
واعتبر من (البدیع) قول ابن الرومي (المتوفى عام ٢٨٠هـ=٨٩٣م):

يجذب من نقرته طرة إلى مدى يقصر عن نياله
فوجهه يأخذ من رأسه أخذ نهار الصيف من ليله
وهو يشير بالليل والنهار إلى لون الشاعر الأسود وجمال بياض جلد الرأس.
وكثيراً ما يكون في شعر هؤلاء الشعراء ابتكار كبير فمن ذلك قول أبي نواس:

تقول غداة البين إحدى نسائهم لي الكبد الحري، فسر! ولك
وقد خضبتا عبرة، فلدمعها على خدها خد وفي نحرها نحر
أو قول ابن المعتز:

أنظر إلى حسن هلال بدا يهتك من أنواره الهندسا
كمنجل قد صيغ من فضة يحصد من زهر الدجى نرجسا
أو قول ابن الرومي:

وقد نشرت أيدي السحاب مطارفاً على الأرض دكنا وهي خضر على
يطرزها قوس الغمام بأصفر على أحمر في أخضر وسط مبيض
كأذيال خود أقبلت في غلائل مصبغة، والبعض أقصر من بعض
ويقول الصنوبري في وصف سرير من الشقيق أحاط به ورد أبيض:

قد أحرق الورد بالشقيق خلال بسـتانك الأنيق
كأنما حوله وجوه مستشـرقات إلى حريق
ويقول:

وكأن محمر الشقيق إذا تصوب أو تصعد
أعلام ياقوت نشر من على بساط من زبرجد
والصنوبري يشبه بركة بموضع يصفه، تشبيهاً لا يخلو من تطرف ومبالغة، فيقول:

هي الجو من رقة غير أن مكان الطيور يطير السمك
ويقول في إحدى أغاني الربيع:

إن كان في الصيف ريحان وفاكهة والأرض مستوقد والجو تنور
وان يكن في الخريف النخل مخترقاً فالأرض عريانة والجو مقررور
وإن يكن في الشتاء الغيث متصلاً فالأرض محصورة والجو مأسور
ما الدهر إلا الربيع المستنير إذا جاء الربيع أتاك النور والنور
والأرض ياقوتة والجو لؤلؤة والنبت فيروزج والماء بلور
تبارك الله! ما أحلى الربيع! فلا تغرر فقايسه بالصيف مغرور
من شم طيب جنيات الربيع يقل لا المسك مسك ولا الكافور كافور
وكان أكبر هؤلاء الشعراء الشعبيين غير مدافع ابن الحجاج الذي كان ببغداد، وتوفي عام
(٣٩١هـ=١٠٠١م). وكان نحيفاً ولذلك يقول:

لا تخافي علي دقة كشحي لا تكال الرجال بالقفزان
وقد قال مدافعاً عن نفسه، لما خرج هارباً من غرمائه:

هربت من وطني إلى بلد قد صفر الجوع فيه منقاري
يقول قوم: فر الخسيس، ولو كان فتى كان غير فرار
لا عيب لا عيب في الفرار فقد فر نبي الهدى إلى الغار
ويظهر أنه قال في ذلك الوقت العصب هذين البيتين الآيتين مفتخراً:

قد قلت لما غدا مدحي، فما شكروا وراح ذمي، فما بالواولا شعروا
علي نحت القوافي من معادنها وما علي إذا لم تفهم البقر
أما المتنبي الذي يرجع أصله إلى العراق أيضاً، والذي نشأ في الشام، فنجدته يتمسك
بطريقة العرب القدماء، خلافاً لهؤلاء الشعراء المحدثين.

وكان المتنبي كثير الأخذ من ابن المعتز على تركه الإقرار بالنظر في شعر المحدثين. وقد
عاداه شعراء العراق كابن سكرة، وابن لنكك، وابن الحجاج.

وكذلك كان أبو فراس الشاعر الشامي (المتوفى عام ٣٥٧هـ=٩٩٨م) ينسج على منوال
القدماء، لم يحد عن ذلك قط. وأغرب ما نراه فيه قلة تعرضه في قصائده، أو بالأحرى أنه لم
يرد أن يتعرض في قصائده، لذكر الحروب الشعواء التي كانت ناشبة في غرب المملكة
الإسلامية؛ ونظراً لأنه كان ابن خال سيف الدولة الأمير الحمداني، فلا بد أن يكون قد ذاق
الكثير من أثر حوادث ذلك العصر.

وولد الشريف الرضي عام (٣٦١هـ=٩٧٠م) ببغداد؛ وكان في الثلاثين من عمره، لما

مات ابن الحجاج؛ وكان الرضي شاعراً عظيماً، وقد اختار من شعر ابن الحجاج كتاباً سماه الحسن من شعر الحسين. وكان الشريف الرضي سيداً كبيراً انحدر من شجرة عظيمة عريقة النسب، فقد كان أبوه نقيباً للعلويين جميعاً، فلما مات في سنة (٤٠٠هـ=١٠٠٩م) تولى الرضي منصب أبيه وجميع ما كان يتقلده ويعهد به إليه، وإن لم يكن الشريف أكبر إخوته. وكانت داره مثال الأبهة في المظهر، وقد اتخذ داراً لطلبة العلم سماها دار العلم، وهياً لهم فيها ما يحتاجون إليه. وكان الرضي مشهوراً بأنه لا يقبل من أحد شيئاً، وقد رفض هدية من وزير؛ ومن شعره:

أروم انتصافي من رجال أبعاد ونفسي أعدى لي من الناس أجمع
ويقول:

إذا لم تكن نفس الفتى من صديقه فلا يحدثن في خلة الغير مطلباً
ويقول:

وقالوا: تعلق إنما العيش نومة تقضى، ويمضي طارق الهم أجمع
ولو كان نوماً ساكناً لحمدته ولكنه نوم مروع مفرع

ولم يكن يخرج من فم هذا الرجل النبيل حقيقة كلمة واحدة من الكلمات القبيحة التي يتلفظ بها العامة.

٣	كلمة الناشر
٧	المقدمة
٨	فصل القرن الرابع الهجري
١٧	الأمرء
١٨	الفساد في بغداد
٢٢	اليهود والنصارى
٣٠	الشيعة
٣٨	تعليقات
٤١	إدارة الدولة
٤٧	الوزارة الوزراء
٥٧	المسائل المالية
٦٢	لا جمارك في الإسلام
٧٠	رسوم دار الخلافة
٧٩	الرقيق
٨٣	تعليقات
٨٧	العلماء
٩٤	علوم الدين
١٠٠	المذاهب الفقهية
١٠٣	القضاة
١١٠	علم اللغة
١١١	الأدب